أولغا 12

تأليف: ريم بن العابد

تسير بنا الحياة في قافلة الحاضر ، قافلة لا تتوقف وليس لها محطة حتى ولو أردنا ذلك بشدّة... ترغمنا على الاختيار بين المواصلة أو الخروج عن القافلة ... وهذا يعني النفي والإبعاد، وتتصفح ماضينا بعناية ... قافلة الحاضر ترغمنا على مواصلة السير، حتى ولو أردنا الوقوف قليلا .. في رحلة غريبة يذهب وائل بعيدا ويتجاوز الخيال، ينتقل إلى عالم آخر في ظروف غامضة ومن مدينة الهوى ... مدينة قسنطينة يشدّ رحاله دون استعداد سابق ويكتشف جمال ماضيه ويطفو خارجا ، ويقع في أصعب اختيار...

(1) صبرا إذا ضاق الفؤاد

سقطت بدفء ... بعمق يختلج نفسي ... وحسرة مولعة ... سقطت .. وحين كشفت عن حجابها أبصرتها ... نعم هي تلك... هي الدموع يلفها خمارها ... هي الدموع تسقط بحرقة بعدما خجلت ... وتجمّعت ... خبر يلطمني كالموج ويصعقني كالكهرباء ويجذبني كالحنين... خبر أرقد طموحي متوسدا التحسّر والخيبة ... رحمك الله يا جميل ... كيف أنسى أخي الصغير ... إعذرني يا أخي ... إعذريني يا أمّي ... فأنا لم أعد أطيق صبرا ... على شذى الذكريات ، يرمي الحنين بسهامه نحوي وفي هذه اللحظة وقبل الرحيل أقرر زيارة قبره مرّة أخرى ... أدخل مدينة عامرة بأهلها صامتة باهتة ذات ألوان رمادية وأرواح بين حالين تتقلّب ... أقف مقابلا الشاهد لأقرأ عدد السنين التي عاشها بين السطور ... طفل بريء تنتهي رحلته في الحياة على يد متهوّر إشترى رخصة السياقة ... أتمعّن القبر، بعد لحظات قرأت سورة الفاتحة وقلت بصوت خافت : أخي أعلم أنّك تسمعني ... اطمئن أنا بخير ... رغم رحيلك منذ خمسة عشر سنة إلّا أنّني لم أنساك ولن أنساك أبدا .... لن أنسى اثني عشر سنة قضيتها إلى جنبك وكنت العضد والسند ... لن أنسى ضحكتك ولا صوتك ولا طريقة كلامك ... أنا اليوم راجع من حيث أتيت ... راجع إلى منزل بعيد عن هنا ...

نسيت ... يجب أن أسرع قبل أن تفوتني الحافلة ،سأتصل بعاصم.

(2) ارتباك

في محطة المسافرين الكائنة بالخروب – مدينة قسنطينة- التي كانت تضج بالأشخاص، فيها موقف للحافلات التي اصطفت بانتظام وموقف لسيّارات الأجرة التي اصطفت خلف بعضها مشكلة بذلك صفّا موازيا للرصيف، فتلك امرأة شاحبة اللون اقترب موعد وضعها لجنينها وذاك شخص تجاوز عقده الخامس يحمل الكثير من الحقائب ربما هو تاجر متنقل، وهذه طفلة صغيرة تحمل دمية صغيرة ويبدو الحزن على وجه أمّها ، وهذا شابّ يستنشق سيجارة ويجلس في المحطّة ... لعبت بعينيّ أتفحّص الوجوه فأرى في بعضها الهم والحزن وأخرى

وجوه بريئة لأطفال لا يعرفون من الأمنيات سوى يسيرها ، ركبنا الحافلة ولا زلت على حالي أتفحّص وجوه الأشخاص لعلّي أصبّر نفسي ... نظرت إلى السائق لأجده يشبه أبي في ملامح وجهه وحتى في نبرة صوته فيأخذني الحنين .. لقد اشتقت إليه وإلى تقطيب حواجبه وتجهمه الدائم .. نظرت إلى الخارج .. أردت أن أنظر إلى الطبيعة وشموخها بذلك الجفاء الشتويّ وابتسامتها الخجولة في هذا الفصل ، رغم تجمّع الغمام إلّا أنني آثرت الذهاب إلى بحيرة توجد في طريق" ابن والبان" بعيدا عن عمران بلدية ابن باديس رفقة صديقي عاصم .. كانت بحيرة كبيرة يحيط بها اليابس المكوّن من حجارة متوسطة الحجم وعلى مقربة منها عين طبيعية ذات ماء عذب . جلسنا على حافة البحيرة التي كان لها شاطئ من جهتها الشمالية فيه أحجار ضخمة ، وكان بها أنابيب تضخّ المياه لتسقي ما حولها من مزروعات وأشجار لفلّاحين هناك ... جلسنا على بعض أحجارها ووقفنا على بعضها الآخر، مزحنا وضحكنا ، أخرجنا الطاقة السلبية التي كانت تضيق علينا الخناق ، على غفلة مني وفي سهوة لمحت كهلا يلبس "برنوسا" في الجانب الآخر المقابل لي ،لم تبدو لي ملامح وجهه لكن كان يبتسم معي حتى بدت نواجده ، فالتفت لعاصم لأخبره عنه لكنه اختفى فجأة وسخر مني عاصم وأخبرني أنّها مجرّد تخيلات فقط ...

صمت لكن بدا الأمر حقيقيا لدرجة كبيرة .. ربما عقلي أوهمني بذلك ...

سقطت علينا حبيبات غيث تتحسس وجوهنا وكأنّها تلقي علينا التحيّة قبل أن تباغتنا فأسرعنا بالعودة ولا يزال خيال ذلك الرجل يشغلني ....

(3) على رصيف الطريق السيّار

في لحظة ما من حياتك تتجاوز الواقع وتسير في خضم الأحداث على رصيف أمنيات ينبع شوقك لتحقيقها ، فجأة تضطر أن تعيش وتلتزم بميثاق الحياة ،لا تستطيع السير وسط

طريق سيّار يجتازه العديد من الشاحنات الضخمة والسيّارات مختلفة الأحجام ومتنوعة الطراز.

فهو طريق مهيئ للسيارات والشاحنات ... يكفيك رصيف حياة ، على حافة ذلك الرصيف يجلس وحيدا ، يفكر في أعباء الحياة، يشاهد مرور السيارات ،وتلك الفوضى، وذلك الضجيج ... يشاهد بتمعن يرافقه تيه وذهول .. يشاهد في الجانب الآخر للطريق ذلك الرجل الذي يضع خضروات على حافتها ليبيعها متشردة من متجر يسترها من أعين المارة ، يلاحظها في ذلك البرد القارص وفي ذلك اليوم الكئيب، يلاحظ فرحه بيومه، يتساءل عن فوضى بداخله :

لم أحقق ما حلمت به ولو جزءا صغيرا منه ، الحقيقة هي من تواجهني فهل وجب علي مواجهتها ؟ يسأل نفسه: هل يجب أن أقف أو أستمر في الجلوس على هذا الرصيف ؟ هل أعيش على ذكرى وفاة أخي جميل ؟ أم أعيش لأعيش ؟ ضيق شديد يعصر فؤادي ....

يتقدم نحو ذلك البائع الكهل يريد أن يفضفض معه، لكن يخاف أن تحمر عيناه وتهطل دموعه فتعصف بكيانه كرجل، فالجزائريون يعتقدون أنّ الدموع ضعف، فرجال الجزائر لا تسيل دموعهم من أجل أعباء الحياة فهم أقوى منها - بخلافي أنا- فأعتقد أن الدموع تعبير عن حالة نفسية تختلج في النفس ولا تعبر أبدا عن ضعف أو قوة الشخصية ، ربما أبرر لنفسي سقوط دموعي الدائم فهي رفيقة الدرب في مشوار عثرات الحياة.

ألقيت السلام على ذلك الكهل لأرى بريقا مخيفا في عينيه ، ينظر إليّ نظرة ثاقبة كعرّاف يتنبّأ بمستقبلي ، قلت بعد ارتباك واضح في كلامي ونظراتي : كيف حالك يا عمّ؟

- بل كيف هو صباحي، ويضحك ذلك الكهل ببراء طفولية لأنظر في عينيه وأتساءل عن سعادته، كأنه شخص غير الذي كلمته قبل برهة ....

_أاا نعم ... أبتسم في وجهه و أواصل: كيف هو صباحك؟

- كما ترى هذا هو حالي منذ عشرين سنة ، يؤنسني نسيم الصباح وتدلل الرياح ،

_ ألا تشعر بالملل؟

_ ملل؟ ما معنى هذه الكلمة ، أتعرف يا بني لو شعر المجاهدون بالملل ما كنت لأشعر أنا بالحرية ، هذا بلد الشهداء والأحرار .. نحن لا نعرف الملل.. ويبتسم ليظهر ذلك البريق المرعب في عينيه ، فأردّ عليه بفلسفة شبابية:

_ المجاهدون والشهداء رحمهم الله كانت لديهم قضية .. هدف سعوا من أجل تحقيقه

_ لا بل سعوا لتحقيقه

_ نعم سعوا لتحقيقه

_لا ، بل آمنوا بضرورة تحقيقه ،هل تعتقد أنهم كانوا يعلمون الغيب

_ لا ، أستغفر الله .. لك.. يقاطعني الكهل :

_ اسمع يا بني إني أرى في عينيك من التذمر ما يسعني لأعلم جيدا ما تعانيه، لكن تغيير الواقع يحتاج لتغيير مشاعرنا وإدراكنا اتجاه الأشياء أو الأشخاص المحيطين بنا... ويرفع رأسه لينظر إلي وينتظر جوابا مقنعا، لكنّني أحسست أنني أتحدث مع فيلسوف تخرج من جامعة الحياة ،أدركت حينها كم كنت مخطئا في حق كثير من الأشخاص الذين احتقرتهم استنادا إلى الوظائف التي يشغلونها .

وسط هذا الشرود قال لي الكهل:

أنا موجود هنا يا بني أنتظر قدومك كل يوم لأجيب عن تساؤلات تشغل بالك .

ما هذا الحديث المخيف ، قلت في ارتباك بعدما اتسعت عيناي : أو تعرفني**!؟**

- نعم أعرفك

- لكنني لا أعرفك ولم أرك قط!!!

- أبشر يا بني ولا تنظر للسعادة من بعيد فلعلها تأسرك ذات يوم ...

- السعادة تأسرني ... ! في خضم هذه المتقلبات السياسية والحراك الشعبي والمظاهرات الطلابية ... وأتنهّد لأقول : أتمنى ذلك .. ، نظر إلي نظرة خاطفة ولم يعرني أي اهتمام بل كان مشغولا بترتيب خضرواته ، فتركته لأجلس متشردا مرة أخرى على الرصيف لأفكر ، لأواجه حقيقة اختبأت منها لسنوات.

تمر علينا لحظات من حياتنا نود استرجاعها وتغييرها لكن فجأة نستفيق من غوصنا في غمار المستحيل فما فات لن يعود يوما ،لكن ماذا لو استطعت الرجوع إليه، كنت مشوشا جدا وزاد تشويشي هذا الرجل المخيف.

(4) الأزمات تلد الرجال

أذهب بتفكيري بعيدا ، أمشي بكتفين مثقلين ، لا أدري لما أضجر من الحياة ألأنني إنسان فاشل ، لا أذكر لنفسي نجاحا قطّ، لكن عمليات الفشل أتمّها بإخفاق مذهل توجهت نحو مسكن أستأجره رفقة صديقي الذي يدرس في كلية الطب، صديقي عاصم يقسّم ساعات يومه بين العمل والدراسة ، كان يتحمل تكاليف دراسته ويتقشف في عيشه ويحاول نزال الحياة نزالا يغلبها فيه ويهزمها، فلقد اختارت أمه الزواج مرة أخرى بعدما انفصلت عن أبيه ، أخذته معها لبيته الثاني لكنه لم يشعر يوما أنه بيته ، تزوج والده كذلك من امرأة أخرى وأنجب ثلاثة أطفال، كان عاصم هو الحلقة الأضعف وسط كل هذا... كان حبا تأرجح بين طرفين ثم أصبح حلما يكاد يتحقق، ليصبح عثرة في طريق رجل وامرأة ، كان عاصم يحمل الكثير من الحب لكن ليس لوالديه بل كان يحب الدراسة بشكل جنوني ، ينام على الدفاتر والكتب ، يحتضنها بشدة ... يقبلها عند نجاحه في الإمتحان ، كان يفرغ شحنه السالبة فتمتص الدراسة غضبه وسخطه على قانون وضعه والداه دون التفكير في بذرة غرساها معا في رحم

امرأة تمنت دائما أن تكون أمّا ، كنت أجد كتابة على حائط الثانوية : "أهذه الحياة التي كنت أركل بطن أمي لأجلها" كانت هذه العبارة تلمسني وتحرّك مشاعري وأحس أنها كتبت من أجلي وفي الأخير اكتشفت أن عاصم هو من كتبها لأنني وجدتها مكتوبة مرة أخرى على طاولة الطعام ، عاصم رجل صنعته الظروف ، عرفته منذ كنا في الثانوية ودرسنا معا لكن معدلي لم يخولني لأدرس معه فاخترت شعبة العلوم الإنسانية فدرست علم الإجتماع وعشت لحظات رائعة مع مقدمة عبد الرحمان ابن خلدون ، كنت أتساءل دائما عن شخصيتي وعملي ودراستي ماذا لو ولدت في ذلك العصر الجميل؟ ارتشفت من كؤوس فلاسفة أحبّوا الحياة واخترع بعضهم قوانين تنظّم حياتهم ...

في هذه اللحظة يدخل عاصم للمنزل شاب جميل أنيق ، مرتب ، يضع نظارتين طبيتين ليبتسم في وجهي ويلقي علي السلام

- وعليكم السلام يا دكتور

- لم يبق لي سوى عامين وأتغزل بهذه الكلمة

أضحك بصوت مرتفع ، يقلب عاصم عينيه في منزلنا الذي هو عبارة عن مطبخ وغرفة فقط، ويقول ممسكا ببطنه ملقيا محفظته فوق الأريكة البالية:

-إني أتضوّر جوعا هل من طعام؟

_ إفتح الثلاجة ؟

_ أريد طعاما ساخنا

- ماذا تريد أن تأكل يا سيدي

- أريد طعاما ساخنا فقط

حضرت لصديقي عاصم حساء ساخنا ، لذيذا، فأنا طباخ ماهر ورسّام مبدع فالأزمات تلد الرجال، تعودت الطبخ وحدي منذ إقامتي الجامعية ، كان اختياري هو الإبتعاد عن البيت، عن أبي المتسلّط برأيه ، الذي يريد منّي أن أكون دمية يحرّكها كيفما شاء ، عن دور الإبن الأكبر الذي يشارك والديه مسؤولية تربية إخوته ، كيف أتحمّل مسؤولية وسيم وضياء وعلياء وسجدة؟ أنا عاجز عن تحمّل مسؤوليتي ، هوايتي وموهبتي في تحضير الطعام جعلت منّي كافلا آخر لإخوتي ، إضافة إلى الدراسة فأنا أشتغل ساعات إضافية في المطاعم ... أحبّ تحضير الطعام وهذا ما جعلني بعد مضي سبع سنوات أتقن هذه الهواية بمهارة .

أحيانا يكون هروبنا من أمر معين هو بداية جديدة لأمر آخر يجعلنا نواجه الحياة بكلّ عزم وإصرار.

(5) الساعة العجيبة

في الصباح استيقظت فرحا متفائلا ، أحمل في جعبتي الكثير من الأسئلة لذلك الكهل، اتجهت إلى ذلك الرصيف وفجأة لم أجد تلك الشاحنة ولا ذلك الرجل ، اعتقدت بادئ الأمر أنني أتيت باكرا أو هو من تأخر ، جلست في ذلك المكان أنتظره وإذ بي أجد ساعة ملقاة على الأرض ، حملتها لأحس بحرارة تنبعث من داخلها وأرى لونا كبريق رعد يختفي ويظهر ، كانت ساعة دائرية صغيرة معلقة في سلسلة ، لونها ذهبي، الساعة لديها غطاء لونه أصفر ، مكتوب عليه حرف "0" باللغة الأجنبية ، أمّا هي فكانت أرقام الوقت فيها مكتوبة بطريقة غريبة ، في الوسط 0 وتتجه منه أسهم إلى كل وقت من الساعة وتحيط بها كتابة غريبة ، أما زجاجها فكان سميكا جدا ، استغربت هذه الساعة وواصلت انتظاري لكن الكهل لم يحضر، اتجهت إلى أحد الأكشاك القريبة لأسأله عنه، قلت:

- السلام عليكم

- وعليكم السلام

- أريد ان أسأل عن الكهل صاحب الشاحنة

- أي كهل وأي شاحنة ؟؟؟!

قالها بنبرة مستغربة متعجبا جدا فرددت مستغربا : تلك الشاحنة التي تقف هنا! وأشرت بيدي...

خرج الرجل من كشكه ، ليتأكد من معلوماته مقارنة بما أقوله له ، لكن أكد لي بأنه لا وجود لأيّ شاحنة هنا فهو يزاول عمله في هذا المكان منذ عشر سنوات

في هذه الأثناء مرّ شاب من أمامي رأيته عندما تحدثت إلى الكهل فلقد نظر إلي مطوّلا لذا فأنا أتذكره، ناديته: يا أخي ... يا أخي ، توقف لينظر إليّ نظرة استغراب وخوف ووقف صامتا قلت: لقد مررت البارحة من هنا وكنت أنا أتحدث مع كهل ، فلقد وقفنا هنا أمام شاحنته التي كانت تحمل الخضر، قال لي : أعذرني يا أخي لكني رأيتك تتحدث وحدك، وهذا ما دفعني للنظر إليك والتساؤل والإستغراب ، وقفت متسمرا في مكاني ولم أستطع التحرّك ، أحمل تلك الساعة في يدي متعجبا، وخائفا ، هل جننت ؟ هل ضغوط الحياة والبطالة أذهبت عقلي؟

أحسست بشلل في رجلاي واتجهت نحو الرصيف مرة أخرى لأجلس عليه ، كانت الحيرة تأكلني والفضول يعتريني ، تهت ووضعت يدي على خدي ، ربما كنت أحلم ...

ظروف اجتماعية متدهورة حراك شعبي يندد بالفوضى التي اعترت نظام الحكم ، حركة شبابية تريد التغيير ، كنت أشارك في مظاهرات الطلاب كل ثلاثاء كنت أنادي ضمن أصدقائي الطلبة: "سلمية سلمية" و "جيش شعب خاوة خاوة " جلت شوارع قسنطينة العريقة... أحسست بالألفة والإتحاد ، أحسست بالحرية ، وأحسست أنني جزائري....

ربما اختلطت عليّ الأمور .... و ذهب عقلي... مخلّفا ورائه شابّا مخبولا ... طويل القامّة أزجّ الحواجب ... أسود العينين ... ذو لحية خفيفة وشعر مجعّد ... شابّ تخصص في

علم الإجتماع وصار فيلسوف مجتمع ... لكن قبل أن يتفلسف ذهب عقله ...يفصلني عن شهادة الماستر2 عام فقط، هل جننت؟

أخذت الساعة التي كانت دافئة طوال الوقت، وضعتها في جيبي ، ثم وصلت إلى البيت ، فوضعتها مباشرة في الثلاجة ، ثم جلست على الأريكة وفكرت بعدها في الخروج ، جلست في المقهى وأنا شارد تائه خائف... أحسست بوحدة قاتلة وتذكرت أميّ .... فامتلئت عيناي بالدموع لكنني تشجعت وأمسكتهما فأنا من اختار الإبتعاد عن البيت والإقامة وحيدا ، هل أمي تشتاق لي كما أشتاق لها ؟ هل تحس بي ؟ هل تعي وتدرك ما حولها من تطوّر وصلنا إليه؟ ربما لا ... فهي رجعية ولا تفهم تلك الأمور الرومانسية والحديثة ، تؤمن بما تعلمته قبل سنوات .. ثقافتها لا تعجبني وتضحكني .. إنها متخلفة ولا تفهم حياتنا نحن الشباب.... دائما تتهمني بالاستهتار ..

جلت بعيدا أتذكّر أمي وكلماتها ولباسها ، كنت في جدال حاد مع نفسي .. نتنازع حول أمي ....

استغرقت ساعتين خارج البيت بين المقهى وتجوالي في الشوارع، كنت أمرّ على الحوانيت لأشاهد ملابسا معلقة تناسبني لكني لا أملك ثمنها ... جالت عيناي واستمتعتا بما شاهدتاه لكن قلبي كان يحترق ...

رجعت إلى البيت فتحت الثلاجة عند دخولي مباشرة في لهفة واستعجال لكن كان الأمر غريبا ... يا الله الساعة دافئة لم يتغيّر فيها شيء ، حاولت نزع زجاجها لكن دون جدوى ، ما لا حظته أن الوقت الذي كانت تشير إليه تغيّر .. فرميتها على الأرض بشدّة لكن ... صدر منها ريح قوي واهتزت الأرض عند اصطدامها بها وإذ بريح أبيض مبعثر يخرج منها فيحيط بي وأنا مذهول ومرعوب ... كان يسحبني ويدخلني حاولت الصراخ لكن كان صوت الريح قويا ... لم أعرف ماهو أهو دخان لونه أزرق .. كان ذلك البرق الذي شاهدته

يختلط بالريح ... شاهدت جسمي وهو يدخل داخل الساعة وأنا لم أستطع فعل شيء فلقد أحسست نفسي مقيّدا بسلاسل حديدية ثقيلة .... ومغناطيس قويّ يجذبني داخلها.

مرّ كلّ شيء بسرعة .... دخلت في دوّامة وكان قلبي يرتجف وأنا أصرخ ، هل هذا قبض الروح ؟ هل أنا أحتضر؟ أسئلة تبادرت لذهني ... إضافة إلى : هل جننت؟

(6) أرض أولغا

وإذ بي سقطت فجأة في مكان واسع جدا، رائع الجمال ، حشيش أخضر ونهرين متوازيان في أرض ذات هضاب صغيرة منحدرة ، وزهور مختلفة الألوان مصفوفة ومنظمة ... هل أنا في الجنة؟ هل كنت صالحا في الدنيا ؟ الحقيقة هي أني لم أكن بذلك القدر الذي يجعلني أدخل الجنّة مباشرة ..

دهشت واستغربت ... كان المكان رائع الجمال ، الشمس تهب بالغروب تقابلني ببريقها الطفيف الذي يدهش كلّ من رآه.. يحيط بها احمرار مصفّر ، وزرقة يداعبها الغمام ، وقفت مفتونا بذلك الجمال ، كانت الجبال تحجب عني الشمس هنيهة بعد هنيهة وكان الماء ينساب من بينها فالشمس تغازلني بجمالها والجبال تتحداها ، أما انسياب الماء فلقد أذهلني ... لم أتحرّك من مكاني ولم أرمش عيناي وأنا كالمتجمد ولم ألحظ مرور الوقت حتى ظهرت تلك النجيمات الجميلة كالقناديل الصغيرة تزيّن السماء ....

جلست بعد انتباهي من غفوتي لأشاهد فتاة جميلة ، وجهها وضاء وجمالها خلّاب، بيضاء الوجه ينساب شعرها انسيابا مدهشا على كتفيها وكأنه يتغزّل بها تضع تاجا فوق شعرها المسدول الطويل الأسود، متوسطة القامة ، ذات قد رشيق وابتسامة تفوح منها السعادة كالعطر ، أنفها صغير وجميل أما عينيها فواسعتين ، لونهما أزرق سماويّ ، كانت جميلة إلى درجة لم أستطع وصفها ... حتى ظننت أنها الحور العين التي وعد الله بها عباده الصالحين ، فلقد كان وجهها مستديرا ... لقد كانت فاتنة الجمال ...

كانت تتقدم نحوي وتنظر إلي مبتسمة ابتسامة رائعة ... كانت متأنية في خطواتها و مشيتها أنيقة ... تلمس بأصابع رجليها الأرض لمسا ،كأنها تمشي فوق بساط متحرّك أو أنّ جسمها خفيف لدرجة أن الهواء يحرّكها كالريشة الخفيفة ،فهي لم تكن تضغط على الأرض بخطواتها ..... وقفت والفزع يكسو عيناي .. مندهش ... مصدوم ... وصلت إلي ووقفت قريبة جدا مني ونظرت في عيني وأنا أنظر في عينيها ثم أمسكت بيدي بكلتا يديها وفتحت يدي لتجد تلك الساعة ، نظرت إليها ثمّ أعادت التحديق في عيني ثمّ خبّأت الساعة في جيبي ، وعدّت بإصبعيها اثني عشر لكنّي تكلمت إليها بصوت مرتجف : من أنت ؟ أين أنا ؟ هل هذه الجنّة؟ هل مت؟

نظرت إلي بعينين تملؤهما السعادة والفرح وأشارت بيدها اثني عشر ، ثمّ اقتربت مني وهمست في أذني : أولغا... نظرت إليها في فزع ، فأشارت إلي بيدها أن اصمت

وأمسكت بيدي محاولة أخذي إلى مكان أجهله لكن كانت خطواتها هذه المرّة مسرعة ... لم أفهم شيئا لكني خضعت إلى ما يواجهني، لعلي بذهابي معها أفهم بعض ما يحدث لي

كان تفكيري مشلولا .... لكن كنت مطمئنا لأنني أدركت يقينا أن ما أصابني لم يكن ليخطئني....

مشيت خلفها وهي تمسك بيدي ، كنا نتخطى النباتات والزهور إلى أن وصلنا إلى مكان فيه بنايات لم أر مثلها في حياتي وكانت تعلوها رموز غريبة لم أرها بوضوح ليلا ..... بدأت أسمع أصواتا ... أاا ... إنها زقزقات طيور ... كانت تغاريد كثيرة وجميلة بأصوات مختلفة وكأن هذه الطيور تؤدي لحنا خاصا ومحددا .... ماهذا ... إنها ليست طيور ...! إنهم أشخاص يقلدون زقزقات الطيور! للتسلية ... ربما لا يعرفون الكلام!

(7) بين الخوف والإطمئنان

أتسوقنا أحلامنا للرغبة في الحياة؟

أم للرهبة من الحياة؟

أينتشي الهواء خذلانا ...؟

أنا في مكان لم أحلم قط التواجد فيه مع أشخاص غرباء عنّي، أقرص جسدي عدّة مرّات لعلّي أستفيق.

كنت مندهشا ... أسير... ولا أعرف مكان محددا أقصده... أيمكن أن تسوقنا الحياة إلى عالم مجهول مثل هذا ؟ أم يسوقنا تمسّكنا بالحياة؟

لم يسألني أحد ما دينك أو من نبيّك أو غيرها من أسئلة البعث ... كنت مشوّشا جدا وخائفا ... تذكّرت صديقي عاصم وأمّي ، لم تسنح لي الفرصة لتوديعهما ، لم أقل لهما الكثير من الكلام .

دهشتي ، حيرتي ، ذهولي...

أغشي عليّ من شدّة الفزع والإرتباك لأستفيق صباحا على أريكة مهيّأة جميلة مريحة، مغطاة بالحرير.

أتربكنا الذكريات ؟!!!

أستيقظ على خرير مياه وصهيل خيول، لم يسألني أحد من أين جئت أو من أكون، أشخاص لم يسألوني عن اسمي أو بلدي .. ! لم يحتقروني أو يعزلوني أو يسجنوني، أحسست بحريّة لم أحسّها قطّ فيما مضى من عمري...

لا أعرف أهذه حقيقة أم خيال... لكنّي أدركت بعد مُضيّ أسبوع من مكوثي هناك ، أنّني أواجه حقيقة لا بدّ لي من مواجهتها ، وأنني مسجون في أرض السعادة ...

هل هذه نعمة أغبط عليها ؟ أم هي نقمة حلّت بي؟

كان يومي الأوّل يوم استكشاف فلقد كنت في مرحلة استكشاف المكان ، كما فعل الفاتحون العرب حين استكشفوا شمال إفريقيا قبل فتح البلاد سنة اثنين وعشرون هجري ، حيث استغرقوا ثمانية وعشرون سنة أي حتى سنة خمسون هجري ، استطاعوا فتحها كما عرف في التاريخ بمرحلة الفتح الحقيقي ، هل سيطول مكوثي هنا؟ هل سأبقى ثمانية وعشرين سنة ؟ أم سأبقى أكثر من ذلك؟

لا أدري....

أتفحّص المكان جيّدا في يومي الأوّل ، أسير في أروقة قد أحاط بها العشب وأنواع كثيرة من الزهور ذات ألوان مختلفة ، تُلقي في النفس الكثير من الحبّ والأمل والطموح...

كانت ممتدة على امتداد تلك الأروقة المهيّأة ، وتحيط بها بيوت جميلة جدا مصنوعة من الأزهار والعشب ، خاطوا الزهرات ببعضها مستعملين في ذلك عشبا يشبه الحبل في متانته وطوله ، وصلوا تلك الزهرات ببعضها وربطوها بين شجرة وأخرى وكرروا تلك العملية حتى جعلوا من الزهرات خيمة جميلة بل فائقة الجمال ، لديها جانب واحد غير مغطى وباقي الجوانب مغطاة بسلاسة وجمال ، كانت بيوتهم على بساطتها تريح النفس وتبعث الإطمئنان فهدئت نفسي قليلا ونقص هرمون الأندريالين من جسمي وبدأت أستجمع شجاعتي.

.

تفحّصتُ المكان جيّدا كما تفحّصت الأشخاص الذين يقطنون فيه، حتى لباسهم فلقد كان قماشا ملوّنا زاهيا ، صنعوه ضمن مصانع صغيرة ، لاتبدو عليها هيبة المصانع ، إلّا أنّها مختلفة في تصميمها عن خيمهم فهي أكثر رسمية.

أنا الآن في اللاوجود

في اللامكان

في اللاوقت

لا توجد ساعة معلّقة أعرف بها الوقت سوى تغيّر مواقع ظلال ترشدني وليل يُؤنسني قدومه.

تؤنسني نجماته المضيئة وقناديلهم المصنوعة من حشرات ضوئية .. حياتهم رائعة .. لا شجار ولا نزاع ولا كلام هدوء تام ، حفلات ليلية أنيقة وفرق موسيقية تقلّد الطيور في زقزقاتها وألحانها، يؤدون رقصات متناغمة ويكوّنون فرقا موسيقية منسجمة عالم غريب سعيد.

أحببت المكان وأحببتهم لبساطتهم فابتساماتهم دائمة، لا يغضبون ولا ينزعجون وحوههم بشوشة ناضرة ضاحكة ، يبادرون بإلقاء التحية ملوحين بيدهم اليمنى، أحببتهم لاختلافهم في كل شيء عن مجتمعنا الماديّ ;فعلاقاتنا الإجتماعية معقّدة فنحن جميعا نظن أننا في غنى عن إلقاء التحية أو المبادرة بالسلام ظنا منا أن في هذا السلوك إنقاص من شأننا إلّا قلة منا فهم يبادرون ويتواضعون ويبتسمون مستندين في ذلك إلى ديننا الحنيف ورسولنا الكريم – عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم-

أتساؤل كثيرا عن سبب وجودي هنا ؟ وهل انتقالي هذا شمل روحي وجسدي معا أم انتقلت روحي فقط؟ هل دُفن جسدي ؟

أتذكّر كلّ تفاصيل حياتي وتعرضها عليّ شاشة تفكيري ...

(8) الكلام خطيئة

أجلس على طرف نهر وأنصت لخرير المياه ، وأحمل حصى صغيرة لأرميها فيه فيعجبني صوتها عند التطامها بالماء ، وأنا شارد التفكير.. تقترب منّي دون أن أحسّ بمشيتها الغريبة المختلفة ، لتمسك يدي وتنظر إلى عينيّ بابتسامة أسرت قلبي فلم أشاهد مثلها قطّ في حياتي ، فأرفع رأسي نحوها فتجلس إليّ وتقترب منّي كثيرا فأحسّ بجسدها ... لكن تغمرني ببراءتها فأختار الإبتعاد عن جسدها المغري ابتعادا صغيرا لكي لا أحتك به ... في عالم يبدو لي عالما بريئا مخالفا لعالمنا تماما، أتذكّر في هذه اللحظة الحالة المزرية لحافلاتنا ، فنحن في قسنطينة نركب في حافلة تحتوي على عشرين مقعدا ، لكن تحمل أربعين شخصا ونحتك ببعضنا ونلتصق ببعضنا رجالا ونساء ، إضافة إلى موزّع التذاكر الذي يلتصق بنا عند ذهابه وإيّابه...

أنظر في عينيها لأتيه فيهما أتراه الحبّ؟! وهل يمارسون الحبّ كما نمارسه نحن؟!

لا أدري ما أسميها قبيلة أو شعب.. أشخاص يتحدّثون بلغة رقمية ولا أعرف من لغتهم لحد الآن سوى كلمة أولغا التي همست بها لي هذه الفتاة وبعض الإشارات.

إنّها تريد أن تخبرني بشيء، فأشارت لي بإصبعها السبابة ورفعت يدها ثمّ وجّهتها إلى قلبي وأشارت لي بيدها أنّ قلبي يدقّ ووضعت أذنها على قلبي ثمّ رفعت لي إصبعي ووضعته على قلبها وأمسكت برأسي ووضعته هناك ، كان موقفا محرجا حيث نظرت إليها بابتسامة بعدما سحبتُ رأسي ببطء.

ربما كانت تريد أن تطمئنني أو تخبرني أنّها تشبهني فدقات قلبي مثل دقات قلبها ، ربما علامات الخوف تبدو على وجهي ، قلت لها باستفهام مباغت :

- من أنتم ؟ أين أنا؟ وشرحت لها ذلك بالإشارات اليدوية .

لكنّها فهمت أسئلتي وأشارت إليّ : أنّ هؤلاء الأشخاص مشيرة إليهم وإلى نفسها يُدعون "أولغا"، فسألتها : أأنتم قبيلة أولغا؟ فأومأت برأسها أن نعم .

أمسكتُ يدها لأنّي أحسست بالحبّ ، بالرغبة ، بالأمان ... لا أدري .. أردت تقبيلها بشدّة .. لكن .. نظرتها البريئة وتلقائيتها المفرطة ، جعلتني أتراجع عن قراري ، سألتها بعد لحظات من صمتي : لماذا لا تتكلّمون ؟ لكن هذه المرّة أشارت لي أن توقف، ودخلت إلى خيمتها مسرعة لتحضر قرطاسا ولوحة صغيرة خشبية مستطيلة الشكل لتكتب عليها بريشة مستعملة في ذلك حبرا وردي اللون ، مستخلصا من الزهور، كتبت على اللوحة :

حُرّم علينا الكلام أو استعمال أصواتنا ، قلت في دهشة : هل تفهمين لغتي ؟

كتبت: نعم

فأثار هذا دهشتي وفضولي، قلت: لماذا حُرّم عليكم الكلام؟

كتبت: الكلام خطيئة ، هكذا يعتبره شعب أولغا الذي توارث هذا جيلا بعد جيل ، اخترنا الصمت قبل قرون طويلة .

كانت تكتب وتمسح كتابتها بقماش بللته من ماء النهر، قلت : لماذا... لماذا تعتبرون الكلام خطيئة ؟!

كتبت: أوليس الكلام خطيئة ؟ ونظرت إلى عيني وإلى شفتي تنتظر جوابا

لكني لم أفكر فيما قالته إلّا اليوم ، هل الكلام فعلا خطيئة؟ كم من أخ خاصم أخاه بسبب كلمة ، كم من رجل فارق زوجته مستعملا كلمة - طلاق- ...

كم من صلة رحم قُطعت بسبب كلمة ...

تُهت في التفكير، وهي لا تزال تنتظر جوابا ، ربما تنتظر جوابا مقنعا لكن : ليس لديّ جواب

هذه هي عبارتي : نعم ، ليس لديّ جواب ، غيّرتُ مجرى الحديث لأقول لها معبّرا عن إعجابي بها : - ما اسمك؟

كتبت: أولغا 12

قلتُ باستغراب: أولغا12 !

كتبت : نعم ، كلنا هنا نحمل نفس الاسم لكن يختلف الرقم الذي يحمله كل شخص منّا ، ثم تصمت وتنظر إلي لتمسح ما كتبت وتكتب: أوَ لسنا مجرّد أرقام ؟

ونظرت مرّة أخرى إليّ تنتظر جوابا.

إنّها تعجبني بشدّة : جميلة ، ذكيّة ، إضافة إلى أنّها فيلسوفة من عالم آخر ، صمتُ مرّة أخرى وصار الصمت عنواني ، لكنّها تقوم من مجلسها وتتركني وسط أسئلتها المبعثرة والمحيّرة ، هل فعلا الكلام خطيئة ؟! هل فعلا نحن مجرّد أرقام؟!

نظرتُ إليها وهي بعيدة عنّي بأمتار ، لأراها تلتقط تلك الثمار وتبادلني نفس النظرات ... أهي نظرات حب؟ تبتسم ابتسامتها الطفولية لأفاجئ بجسدي يسير نحوها دون تفكير مني، وقفت بمحاذاتها تماما لألتقط لها تفاحة لتقضم منها ، وهل تعتبر تفاحة الخطيئة؟ هل التقاطي لها تفاحة خطيئة ؟ فأغلب الروايات الإسرائيلية تروي أنّ آدم التقط لحواء تفاحة فأخرجه ذلك من الجنّة ، التقطها من شجرة حُرّمت عليه ... إلتقطها بإيعاز من حوّاء ، فهل يعتبر فعلي هذا خطيئة؟

بعد قضمتها تلك انتظرت إخراجي من هناك لكن .. لم يحصل شيء

أسئلة تركتها تلك الفتاة تجول بخاطري ، هل فعلا الكلام خطيئة ؟ وهل أخرجنا إلى الشوارع سوى كلام وتصريحات مستفزة.

هل دافع الحراك الشعبي كلام؟ هل كانت عبارة جيش شعب خاوة خاوة كافية للتعبير عن شعور معظم الجزائريين ؟ هل كانت معبّرة عن إرادة شعب ردّ على مضطهديه بالكلام

سؤال واحد أخذ منّي يوما كاملا للتفكير

(9) عشق بلغة الأرقام

أستفيق من تفكيري وسهوتي كمن يصفع بماء بارد على وجهه لأراها ثانية تحمل تلك اللوحة وتلك القماشة وتلك الريشة ، فتجلس بمحاذاتي تماما بابتسامة جعلت مني شخصا آخرا ، شخص سعيد يقع في حب امرأة من عالم رقميّ. قلت لها في لهفة عاشق: أودّ أن أسمع صوتك ؟

فكتبت : لا أستطيع مخالفة القوانين فعقابها صارم وقبيلة أولغا لا تعرف الألم سوى أسطورة عنه جعلتنا نمتنع عن الكلام

قلت: هل تريدين أن تتكلّمي؟

كتبت: بل أريد أن أسمعك؟

يا إلهي قلبي يدق بسرعة ، إني أقع في عشق امرأة من عالم آخر ، تتسع حدقة عيناي لأنظر إلى عينيها وهي تنظر إلى عيني وشفتي تريد أن تسمع حديثي ، هل أحدّثها عن الحراك ، هي لا تعرف شيئا عن المظاهرات ولا عن الخروج في الشوارع والهتاف ولا تعرف معنى كلمة قائد ولا رئيس ، هل أتحدّث من باب الحديث وفقط ، قلت : أشكّ في فهمك لما سأتحدث به ، هل تريدين سماع مذكّراتي في عالم آخر غير عالمكم ، بؤس ورشوة وبيروقراطية ، ظلم لا مرئيّ ومع الوقت أصبح مرئيّ؟

كتبت : إنّي أنصت لحديثك ، تكلم

قلت : في جمعة ما وكان تاريخها 22 فيفري2019، قرّر الشعب أن يقف متحدا يدا واحدة فخرجنا للشوارع مضطهدين نرفع شعار لا للعهدة الخامسة ،هكذا بدأت مسيرة شعب جزائريّ ، تحدثت عن الحراك لكنها فجأة وضعت رأسها على صدري وأمسكت بمرفقي وواصلت استماعها لي دون فهمها لما أقوله فآثرت سؤالها : هل تفهمين ما أخبرك به

نظرت إليّ ، ثمّ تركتني لتكتب : لا... لكن أريد أن أسمع صوتك

ندمت على سؤالي لها; لأنّ في قربها منّي إحساس لا تكفيني الكلمات لوصفه ، خليط من الحب والأمان ، أحتاج فعلا لاحتضانها لي ، واصلت حديثي متداركا ما أفسدت من حميمية قلّما تحدث : لقد فقدنا ثقتنا بالرئيس والوزراء ، وأصبح الشبان يذهبون إلى بلدان أخرى "حرّاقة" ، صرنا في كلّ يوم نسمع أن البحر التهم عددا معتبرا منهم ، يلفظهم بعد استنفاد أرواحهم ، وصلت خيبة الجزائري إلى درجة أخذ ابنته صاحبة الثلاث سنوات وزوجته الحامل في زورق صغير مع مجموعة أشخاص يئسوا وخابوا في بلدهم ، ما أحزنني في هذا الحدث هو غرق كل من الزوجة والزوج ، بقيت الطفلة على قيد الحياة بعد إنقاذ أحد السفن التجارية التركية لها ، من المذنب يا ترى ؟ من المذنب في قصة تنتهي هكذا ، أيصل الجزائريّ إلى هذه الخيبة ، أيبكي البحر شوقا لبلد يعلم جيدا أنها ليست بلده ، أيبيع نفسا غالية إلى بحر لم يطلب قدومه ، أيجذبه تيار الموت إلى العمق، أم تيار الخيبة

من المواجع التي جعلت الجزائريين يخرجون كذلك هو شخص بسيط وقع في بئر ارتوازيّ لم تسع السلطات لإنقاذه إلّا بعدما شاع خبره على صفحات التواصل الإجتماعيّ وجاء الجزائريّون كعادتهم لتقديم يد المساعدة بآلاتهم الخاصة ، أتعلمين ما فعل الجزائريون حين قدم الوالي ، ضربوه بالحجر .. لا أعلم أفعلا استحق ذلك .. أم أنهم لم يخبروه أن هذه الروح التي تبدوا هيّنة هي روح واحدة لكن ما أصعبها ، تكلّف امرأة حياتها ، تكلّفها تسعة أشهر من صحتها ، من عمرها ، من شبابها ، هي محسوبة عليها .... هي روح خرجت بصعوبة كبيرة ، تكلف المرأة أربعين يوما لكي تشفى ...

عيّاش محجوبي وتهاون السلطات المعنية كان دافعا مهما كذلك ، كان صفعة لشعب لا يرضى بالذلّ والهوان بديل

الهجرة غير شرعية وعيّاش محجوبي إضافة إلى البطالة ، أتعلمين جلّ الشباب الذين تخرجوا من الجامعة لا يجدون عمل ...

صرنا نفكّر بالعمل وفقط لا زواج ولا منزل ولا نملك شيئا أقصى أحلامنا هو العمل ، أتعلمين العمل بالنسبة لكل شخص منّا نحن المتخرجون من الجامعات كالجنّة ،ويتنهّد وائل

أولغا12 لا تزال صامتة ، لا تخترق القوانين ، تكسر الصمت لتنهض وتبتسم ممسكة بيد وائل ، فتأخذه للورود ، قاطفة له زهرة

قطفت الزهرة وأهدتها لي ثم كتبت على لوحتها : أتعرف هذه الزهرة ؟

قلت : لا ، كتبت : زهرة القرنفل ، تشير إلى الفخر والجمال ، أمّا الزهرة الحمراء من هذا النوع فإنها تشير إلى الحب والإعجاب ، بينما يشير اللون الأصفر منها إلى الرفض وخيبة الأمل والإزدراء ، هل حياتكم تشبه هذه الزهرة بأنواعها؟

سؤال آخر أضيفه إلى مجموعة أسئلتها التي لم أجب عنها بعد ، قلت قبل أن أفكرّ: نعم قليلا

نظرت إليّ وكتبت : سأعلّمك لغة أولغا

(10) لغة أولغا

كانت ليلة طويلة ، شوق كبير لتعلّم لغة أولغا ، أراهم يتحدثون بالإشارات لكن لا أفهمهم ، وهل تعلمي للغتهم سيجعلني واحدا منهم أم سأبقى غريبا مهما فعلت ومهما تعلّمت

علمتني أولغا 12 معظم الكلمات التي أحتاجها لأتواصل معها ولأتواصل في عالمها، سعادتي لا توصف بعالمي الجديد ، بساطة ، مرح ، لا يحاسبني أحد ولا يزعجني أحد ، مناظر خلّابة ، لا أملك هاتفا ولا نقودا، أجري وسط الحقول الخضراء ، ألعب مع أولغا12 والأطفال، دخلت لمصانعهم ، جرّبت عملهم .. ، آلاتهم وكأن السحر يحرّكها..

استمتعت بأيّامي هناك فالربيع دائم ، علّمتني أولغا 12 الكثير ومما علمتني أنّ رفع إصبع واحد من اليد مع ثني الأصابع الأخرى يعني الوجود

اثنان تعني الإمتزاج والحب والقبول

ثلاثة تعني الفراق

أربعة تعني طلب الزواج وإشارة أربعة من الطرف الآخر تعني الموافقة عليه أما إن ردّ بثلاثة فتعني الفراق أو الرفض

خمسة تعني الإكتفاء أو النهاية

ستة تعني الجمال

سبعة تعني الحزن والتشاؤم

ثمانية تعني الفرحة وفي الأغلب نستعملها عند ولادة امرأة تدل على خروج الجنين سالما أما إن أشير برقم سبعة معناه وفاة الجنين أو الأمّ

تسعة تعني الجوع والعطش فهم يقدمون الطعام والماء معا لا يفصلون بينهم فعندما يحضر الطعام يحضر الماء

عشرة تعني حضور سيد القبيلة وهوبمثابة المرافق أو المراقب وفقط لا يتدخل في حياتهم أبدا

إحدى عشر تعني المرض وإثنا عشر تعني المعجزة

ثلاثة عشر تعني الكره والبغض ، أربعة عشر تعني الشفاء ولغتهم الرقمية صعبة وتأخذ وقتا كبيرا وطويلا للتعلم ، حاولت أولغا تعليمي أساسيات لغتهم لكي أستطيع التعامل معهم أو فهم بعض إشاراتهم أدركت أنّ لرقم اثني عشر وولادتها علاقة تجمعها حادثة .. لكنّني لم أمعن التفكير في ذلك.

إضافة إلى أنهم لا يأكلون الحيوانات البتة، فهم يعتقدون أنه تجاوز وظلم لأرواح كان يجب أن تبقى على قيد الحياة ، لديهم مختلف الثمار يأكلون معظمها طازجة ، لكنهم ينتفعون بالحيوانات كشربهم لحليب البقر والماعز مثلا ويحبون الطيور حبا كبيرا جدا

اكتشفت عالما آخرا ولا أدري أهو حلم جميل أم أنّ عقلي طار بعيدا ...

أجمل ما حدث لي في حياتي كلها هو لقائي بأولغا12 فلقد غيّرت الكثير من أفكاري الخاطئة

كانت أولغا تتجوّل معي دائما ... ربما لتخفف ما تلاحظه في عيناي من شوق ووحشة

ولقد عرفتني على أنواع عديدة من الزهور ورموزها بالنسبة لقبيلة أولغا ...

لغة أولغا هي لغة الاختصار سؤال جواب دون تمادي أو تفصيل في الرد وهذا يدفع الكثير من المشاكل... فكثير من الكلام الذي نقوله في عالمني ولو بدافع المزاح فهو يحطّم عائلات ويهدم علاقات وطيدة فالكلام يثير الكثير من المشاكل ، فما الفائدة التي جنيناها من الكلام وقد قيل : يبقى الرجل وقورا حتى يتحدّث فتبدو حماقته فالصمت كالتاج المرصّع فوق رأس صاحبه تسقط جواهره الواحدة تلو الأخرى من كثرة لغطه ... الصمت غطاء يستر عيوب الناس وسذاجة عقولهم .. متى نزعوه بانت شخصياتهم على اختلافها .

في اليوم التالي من تعلّمي خرجت من خيمتي واتجهت مباشرة نحو أولغا 12 ، أردت أن أقول لها كلاما كثيرا لكن اختصرته معبرا عنه بلغتها فأشرت اثنين مع ابتسامة عريضة رسمت على وجها ، أي أنا أمتزج بك وأقبلك وأحبك بل أعشقك ، أي أنت فريدة من نوعك ، أجمل امرأة رأيتها في حياتي بدأت أشير بأصابعي وأرصد لها قصتي بلغة الأرقام مختزلا الكثير من الكلام لكنها كانت تحس بما لا أقوله وتستشعره من خلال نظراتي لها ، من خلال ملامح وجهي ...

قلت اسمي وائل ، عمري ست وعشرون سنة أدرس في الجامعة وهذا الموسم الأخير من دراستي ، أردت أن أخفف عن والدي وأحببت تحمل مسؤوليتي فاستأجرت منزلا متواضعا مع صديق لي...

فردّت عليّ بلغة الإشارات والأرقام : هل تشتاق إليه؟

قلت بلغتهم : عالمكم ... السعادة فيه مطلقة .. ليست نسبية .. راضون عن كلّ ما يحيط بكم لا اعتراض ولا جدال ، الحب عندكم كالغيث في نزوله ، أشعر بالسعادة في عالمكم لكن لا أشعر بالإنتماء ، حياتكم روتينية إلى حد كبير ، ليس لديكم طموحات ، لا تواجهون مخاوفكم ... قطعت حديثي أولغا 12 لتقول باستغراب بعدما اتسعت حدقتا عينيها : مخاوفنا ... ما هي؟

- أكبر مخاوفكم هي الكلام

تركتني أولغا 12 واقفا وانصرفت ، ربما لم يعجبها كلامي

انبهاري بعالمهم لم يمنعني من الإشتياق إلى عالمي والمقارنة بينهما ، اشتقت إلى قلوب تحبني وتفتقدني ، أتساؤل كيف سيتقبلون فقداني واختفائي ، وماذا سيفعلون ؟ اشتقت

إلى أستاذ التمدّن والاجتماعي البشريّ الذي كنت في معظم الأحيان أنام في حصته، لكثرة حديثه عن نفسه وإنجازاته ، اشتقت لطابور الحلّاقة وانتظاري ساعتين أو ثلاث لأحلق شعري ، اشتقت لسوق العاصر وتسكّعي المتواصل بين أروقة الحوانيت ، اشتقت إلى رحبة الصوف والجمال ، إلى حيّ الجزارين، اشتقت لرائحة الحوت ، فشعب أولغا لا يذبح الحيوانات ولا يصطادها بل يقدّسها ويحترمها ويعتقد أنّ كلّ ذات روح لا يمكن أديتها ، اشتقت لحافلة الطلبة المكتظة عن آخرها وتجبّر السائق علينا وكأنّه مالكها ، اشتقت إلى ماهو جميل وماهو غير ذلك ، اشتقت لكلّ تفصيل في حياتي كنت غير مبالي به، اشتقت لكلّ شيء في حياتي....

(11) السعادة المطلقة

أدركت في هذا العالم أنّ السعادة ليست في امتلاك كلّ شيء ، السعادة ليست في الحرية المطلقة ولا في السلم الدائم ولا في الكفّ عن الكلام .. السعادة هي حلم في عالمي وطموح يصعب الوصول إليه ... أريد الرجوع إلى عالمي إلى بلدي الجزائر، إلى قسنطينة .. إلى الحراك والهتاف في الحر.. إلى الإزدحام .. أريد الخروج في المظاهرات السلمية ... لقد اشتقت إلى الهتاف ...

في أول الأسابيع أحسست بالسعادة والسرور وأنّ هذه هي الحياة التي تمنيتها دائما ، لا أحد يزعجني أو يبحث عني ، لا ألتزم لا بعادات ولا بتقاليد إضافة إلى أني وجدت فتاة الأحلام .. لكن بعد تكرر الأمر أحسست أنّي في دوّامة تأخذني إلى نقطة النهاية وترجعني إلى نقطة البداية ... دوّامة خطيرة رغم بساطتها

يجذبني تيار الحنين ويأسرني تيّار الحب ، رغم قوانينهم إلّا أنّهم لم يحرموني يوما من الكلام أو يمنعوني ، حتى زعيمهم تركني في حريّة تامّة

هل الحب كفيل بأن ينسيني عالمي

لم أتحدّث إلى أولغا 12 ثلاثة أيّام ، أبحث عنها وأجلس مقابلا خيمتها لكنها تتجنّبني وتهرب منّي : هل خالفت القوانين ؟ هل كانت تحبني ؟ أم لا؟

أردت أن أغيظها وأستعمل كيد الرجال فاتجهت نحو فتاة أخرى وشعب أولغا ودود ومبتسم دائما فنظرت إلي ونظرت إليها مبتسما وأردت التعرّف عليها فأخبرتني بلغتها أنّ اسمها أولغا74 ، فسألتها بلغة الإشارات : لماذا 74، فأخبرتني أنّ سبعة إشارة إلى أنّ أمّها توفيت عند ولادتها وأربعة لأنّها بذرة زواج سعيد ... فآثرت سؤالها عن معنى أولغا 12 ، فابتسمت وأشارت برأسها إلى خيمة أولغا 12 وقالت بلغتها : أتريد أن تعرف معنى اسمها ؟ قلت : نعم

قالت: إنّ أباها هو كبير شعب أولغا ونرجع إليه في أكبر قراراتنا ونتبرّك بموافقته عليها ، أولغا 12 معناه وجود هذه الطفلة مقبول ومحبب و12 تعني المعجزة ولقد رأى في منامه قبل وولادتها إشارة 12 فعند ولادتها نبتت زهرة الليلك عند خيمة والدها فقط ولا زالت تنبت وتتفتح حتى أحاطت بخيمته وهي ترمز بلونها الأبيض إلى البراءة و الأرجواني إلى العواطف والفخر والثقة .. تمتاز برائحتها الفواحة .. وكانت هذه الظاهرة توافق أسطورة كتبها الزعيم الجدّ فكانت ولادتها وظهور تلك الزهرة معجزة، ثمّ أخبرتني أنّ أولغا12 تحبني وأنها امرأة قوية و كتومة .. وأن حبي لها مرتسم في عيني .

بعد هذا الكلام زاد تعلقي بها وذهبت مسرعا إلى خيمتها وقلت : أولغا12 أخرجي .. أريد التحدث إليك.. لكنها لم تخرج .. تسمّرت أمام خيمتها لساعات ، وبعد عناء خرجت مبتسمة ، قلت لها في لهفة : أولغا12 ... أريد دواء للنسيان .. أريد أن أنسى ذكرياتي التي تركتها ورائي في عالمي .. إنّها تناديني وتأسرني ، لا يمر عليّ يوم دون أن أفكّر فيما يحصل وما حصل لا أعلم هل انتقل جسدي أيضا أم أن روحي فقط تعيش في عالمكم ... أريد أن أنسى عالمي لكي أستطيع الإستمرار في عالمكم .. أتعلمين عالمكم رائع .. بل أكثر من رائع ... حريّة مطلقة .. سلميّة مطلقة .. لا اعتراض ... لا صيد .. لا حزن .. حتى عند وفاة

شخص منكم تغرّدون وتبتسمون .. حرمتم الكلام لأنّه يفسد العلاقات ... أتعلمين لقد طمستم جوهر الحياة ... أتعلمين عالمك أفضل من عالمي بكثير ..

ليس فيه طبقية ولا فئة حاكمة ولا برلمان ولا مجلس حكومة ، ليس فيه سجن للمخالفات الإجتماعية أو السياسية أو التجارية أو الإقتصادية .. أتعلمين لماذا ليس لديكم سجن ... لأنّ عالمكم ليس فيه مخالفات .. لا تحتاجون لأيّ سجن .... اشتقت لعالمي وهذا الشعور يعذّبني .. اشتقت لثلّاجتنا الخاوية .. اشتقت لصوت أمّي وأسئلتها الحنونة التي تنبض بالحب ... اشتقت رؤية قبر أخي .. اشتقت لحافلاتنا المكتظة ومخابزنا المليئة بالحشود كأن النساء اعتزلنا فنّ الخبز والعجن ، اشتقت للسوق وما يحدث فيه ، اشتقت لقناطر قسنطينة ، سيدي راشد، باب القنطرة ، سيدي مسيد... اشتقت للقصبة ، اشتقت لبيت عبد الحميد ابن باديس ...

تقاطعه متسائلة بلغتها :بيت عبد الحميد ابن باديس؟ من هذا ؟ قلت لها: في ذكرى يوم العلم أبسط أجنحة الإضطهاد وأختار المواجهة ، في هذا اليوم أتذكّر عبد الحميد بن باديس الذي زرت بيته في خرجة علمية مع زملائي ،لأشاهد باب بيته مغطا بالصدأ وأشاهد بقايا جدران تهمّ بالسقوط مع وعد بترميمه ، أزور قسنطينة العتيقة أو بالأحرى وجه قسنطينة في زمن ما ، في العصر الوسيط ، حين كانت التقاليد هي الحل الفريد المفيد ، أزورها لأحتفل بمجد العلم وشهادة جماعية نقلها جيل الثورة لأرى الفخر في عيون أجدادنا ، عبد الحميد ابن باديس ربطنا اسمك بيوم العلم أتعلم لماذا؟ لأنك واجهت استعمارا بكل أنواعه عملت بما أملاه ابن خلدون في كتابه العبر .. صنعت جيلا كاملا... غرست بذرة اليقين تمثّلت في الروح الجزائرية الأصيلة .. جيل ثوريّ .. جيل مثقف ثقافة دينية توعوية سويّة ...

صنعنا لك تمثالا.. نعم ... ووضعناه في الساحة الكبرى لمدينتنا مقابل لقصر الثقافة – آل خليفة- عندما رشحت قسنطينة لتكون عاصمة الثقافة لعام 2015م لكن لسبب ما لا أعرفه سوى إشاعات فقط تداولها البعض ، أبقينا القلم والكتاب فقط .. ليشهدوا لك بالعلم...

اعذريني يا جدّي فلقد آمنت بالعلوم العقلية التطبيقية لثلاثة عشر سنة حتى نيلي لشهادة البكالوريا، لكن عندما اتخذ مسار دراستي الجامعية علما نقليا فإنّ اختياراتي واعتقاداتي تحسّنت أو تغيّرت أو تطوّرت....

عبد الحميد بن باديس آمن بما قام به وسعى لتحقيقه رغم اضطهادات الإستعمار الفرنسي إلّا أنّه وقف ثابتا هو وثلّة من خيرة مدينة العلماء ، رحمكم الله .. أنا كذلك أؤمن بالحراك الشعبي وأؤمن أن الحياة لن تتكرر أيامها معي بل سأحصي أيامي ولحظاتي بدقة متناهية لأختمها بوداع جسديّ أزليّ .

الحياة فرصة عظيمة دائما... لمن أرادها كذلك ... جثا وائل على ركبتيه باكيا ممسكا بيدها بكلتا يديه يتوسلها: أرجوك أريد النسيان.....

نظرت إليه أولغا 12 بشفقة وبحب... وهل تستطيع مسح ذاكرته؟ هل تريد بقاءه؟ وهل لديه حلّ آخر: هل يستطيع الرحيل ...؟ جثت أولغا12 على ركبتيها لتواسيه ورفعت رأسه نحوها وقالت بصوت منخفض : سآخذك للعرّاف

(12) الإختيار الصعب

لأوّل مرّة يسمع وائل صوتها ، هل الحب جعلها تكسر القوانين ؟ وهل ستعاقب جرّاء فعلتها هذه ، هل ستحرق أو تصلب أو تنفى ...

يستغرب وائل استغرابا شديدا .. يسمع رنين صوتها .. همسها الجميل .. الحب في حضرة الخوف ... وهل هي خائفة

تمسك يده وتصطحبه في رحلة أخرى إلى عرّاف القبيلة لعله يجد دواء النسيان ، لعله يداوي صدى حنين يراسله عبر ذبذبات الذاكرة مستغلا الشوق والحيرة

هو خائف .. هو مطمئن ... هو حزين ... هو سعيد .. هو مندهش... هو آمن ... هو ضعيف .. هو قوي... هو مذهول ... كلها نعوت اجتمعت في وائل أو صفات إلّا أنّها متغيّرة ...

تدخل أولغا 12 خيمة العرّاف الذي يرتدي عباءة سوداء ويقف أمام طاولة مستطيلة طويلة بطول مترين تقريبا ، يضع فوقها مجموعة من القوارير الزجاجية التي تحوي سوائل ، يحمل في يديه قارورة فارغة وأخرى مملوءة

لم يكشف وجهه بعد ولم يتحدّث إلّا أنّه أعطى القارورة الفارغة لوائل فأمسك بها ثمّ ملئها العرّاف بالمكون الموجود في القارورة التي يمسك بها فامتلئت لكن العراف أخذ قارورة أخرى وأخذ يملؤها وهي تفيض على يدي وائل فأحرقه ما سال على يده فترك القارورة فالتطمت بالأرض فانكسرت ...

ابتسم العرّاف وقال لوائل : عندما نعاني لحدّ التخمة ونفيض بما اختلج في نفوسنا فإننا نحرق كل ما يحيط بنا في ساعة غضب .. في ساعة ضعف .. رغم أنّ جوهرنا نافع .. أتعلم ماذا يفعل المكوّن الذي ألقيته على الأرض .. إنّه معقّم الجروح المستعصية وجابر الكسر ...

لم تعرف قيمته حين أحرقك لأنّه لم يجد معلولة فأحرقك كفعل وألقيته كردّة فعل ، لم تقدّر مافي القارورة ولا آثرت قيمتها أو ردّة فعلي كمالكها .. لكن حرّكك الألم

ويكشف العرّاف على وجهه بعدما كان وائل في غاية الإصغاء ، إنّ كلماته لمست قلب وائل لكنه ذُهل وخاف وتراجع عندما رأى وجه العرّاف وسقط على الأرض متعثّرا ... إنه نفس الكهل صاحب الشاحنة ... أكيد أنّها ليست صدفة ، يقول وائل : من أنت ؟

يجيب العراف بابتسامة ماكرة : أنا العرّاف

ينفض وائل الغبار عنه ويقول : أنت فيلسوف حياة بعالمين وجئتك طالبا قطرات من نهر فلسفتك لكن فلسفتك العملية

- ماذا تريد يا وائلّ ؟

- أريد دواءا ، شرابا ، عشبا ، أيّ شيء ينسني عالمي

- لماذا تريد نسيان عالمك ، لماذا لا تحتفظ بذكرياتك الجميلة ؟

- لا أعلم

- بل تعلم وتعلم وتعلم

ويصمت العرّاف ليضيف: من أجل الحبّ ، تختار النسيان ولا أستغرب اختيارك فالحبّ خلّف المجانين وخلّف الشعراء ، ألم تسمع بعنترة بن شدّاد فارس وشاعر ، أحبّ عبلة لكن التقاليد جعلت حبه عذريّا تغنى بها في قصائده ، لم يفصل بينها وبينه عالمين كما تعاني أنت وأولغا12 لكن فصلت بينه وبين معشوقته العادات والتقاليد ، الطبقية ، فكيف ينال ابن جارية شرف الزواج بابنة الأشراف ، أتعتقد أنهم متخلفون ... لا ... ليسوا كذلك ... عالكم هكذا معقّد ..

هل هذا فيلسوف أم عرّاف أم مؤرّخ .. من هذا .. أسئلة راودت وائل ، تتسع حدقتا عينيه ويزداد بريقهما ، يجد الحكمة على يد عرّاف في عالم آخر

يجيب وائل في تنهّد : نعم أحبها ولا أريد أن تتعرّض بسببي للأذى ولا أستطيع الإستمرار في هذا العالم

- إذن تريد الرجوع إلى عالمك؟ يردّ وائل في لهفة : وهل يمكنني ذلك؟

نعم يمكنك .. لكن لن تنسى ما حصل لك هنا .. ولن تنسى أولغا12 .. ستذهب وذكراها في رأسك وستتعرّض هي للذبول ..

يقول وائل في استغراب : تتعرّض للذبول؟

شعب أولغا كالزهور ، يسقى بالحبّ ليستمر في الحياة ، هي تحبّك بصدق ومن يحبّ منا بصدق يذبل عند اختفاء محبوبه حتى يموت شوقا ويُحرق جسده بعدها

يا إلهي ...

يمسك وائل برأسه وأولغا 12تستمع لكلّ هذا وتقول لوائل : لا تخف لن أذبل ... ارجع إلى عالمك

يرفع وائل رأسه نحو العرّاف : هل يوجد شراب للنسيان؟

- لا يوجد ، ليس لي شيء يمحو الذكريات ، الإختيار هو أصعب مغامرة يصارعنا بها الزمن وتتحدانا بها الحياة

الإستمرار يعني تضحية والتضحية تنجرّ خلفها نتائج وتبقى نتائجها محفورة في الذاكرة مدى الحياة

أتعلم يا وائل : إنّ الحب جريمة ، فهل توافقني الرأي ؟

يخرج وائل من خيمة العرّاف يحمل الكثير من الخوف ، ترافقه أولغا12 لتخفف عنه ، تتحدّث معه بالإشارات أشارت أولغا إلى عدّة أرقام 1.2.43.65.87.15.22.77

تحاول بإشاراتها أن تخبر وائل أن لا يجزع فإنّ الجزع لن يفيده في شيء ، وأن الحبّ مستمر في القلب وأنّ التفاءل يقودنا إلى الحلول الصائبة ، وتخبره أنها لن تتركه يعاني مهما كانت النتائج

(13) وقوع من الحب

كتبت ساندرا سراج في إهداء روايتها " مالا نبوح به" : إلى الذين وقعوا في الحب ... والذين وقعوا من الحب

وكتبت قولا آخر لغادة السمان : حبي لك لم يكن المعجزة ، المعجزة أنني كففت عن ذلك

هل فعلا وقعت من الحب ... أوقعني الحب في أصعب اختيار .... هل أتركها تذبل بعدما أمسكت يدي وقادتني إلى السعادة والحب ... هل أتخلى عنها بعدما كانت تضجّ بالحياة .. هل أذرها هكذا .. مبهمة ... هل أذرها تقع من الحبّ... وهل يمكنني نسيانها ونسيان ما سأخلفه ورائي... لا أستطيع .. أبدا لن أستطيع

أقع من الحب بعد شهور قضيتها هنا مخلفا ورائي حياتي وشهاداتي الجامعية وطموحي وعائلتي ... أمكث هنا لأختار الحب .. أريد الحب ... لكن تركت أحبائي خلفي

وقعت من الحب ... نعم وقعت ... أحسّ بعجز في المشي ... ركبتاي تؤلمانني ... أهكذا يكون الوقوع من الحب .. قيد وأسر .. عجز وفوضى

هل أقوم بالمعجزة .. هل أكفّ عن حبها .. فعلا صدقت يا غادة فالكف عن الحب معجزة ..

لا أملك القدرة على الكف لأنّ الحب إحساس فيّاض نبع لا يزم ... زمّ يا حبي زمّ

في حيرتي هذه وتفكيري الذي لن ينضب أراها تقف مع مجموعة من بنات قبيلتها يتحدّثن بإشاراتهن ويبتسمن كعادتهن ... كنّا واقفات ويتحدّثن بالدور .. كأنّ أولغا12 تستشيرهنّ أو تستأذنهنّ لكن فجأة انفجرت إحداهن بالبكاء فكانت أولغا12 تمسح عن رأسها وتحاول تهدئتها

قاربت الشمس على الأفول وغلبني النعاس فتركتهن على حالهن ودخلت خيمتي لكن حين لمحتني أولغا12 أحضرت لي بعض الفواكه وطلبت منّي ان أحضر حفلهم الذي يتكرر كلّ يوم .. أردت أن أقول لها : ألا تملّون لكنّي خشيت أن يحزنها قولي فاكتفيت بقول: أحسّ بالتعب والدوّار سأنام مباشرة

أغلقت عيني وأنا أفكّر في فكرة الوقوع من الحب ، يا ترى كم شخصا وقع من الحبّ.. وما أكثر تقاليدنا التي توقع من الحب... تذكّرت عدّة أصدقاء لي كان لهم نصيب من الوقوع، منهم مؤيد الذي أحبّ فتاة بكل ما يحمله هذا المعنى ، كان يلاحقها خفية لمدّة عامين ، كان كلّ المحيطين به يعرفونها ويعرفون تفاصيل عنها أخبرهم بها مؤيد ، لكن عندما تقدّم لخطبتها ، رفضه أبوها لأنّه كان فقيرا ، أبعده بكلّ برودة ، و هدد الأب ابنته إن تحدّثت معه فكانت تغيّر الطريق حين تلمحه ... كانت أمّه تعلم بعذابه فلقد تغيّر ابنها العاشق ، وتعذّبت عشيقته التي لم تفصح عن حبها له ولا لأيّ شخص ، كانت تريد أن تكتب له رسالة تعبّر فيها عن ما حلّ بها وتعترف له بحبها لكن كانت في كلّ مرة تكتبها فيها كانت تمزّقها إلى قطع صغيرة خافت أن يفضح أمرها وإن علم أخوها وأبوها بالرسالة فسينتهي أمرها ، أخبرتها أمّها أنّ زواجها بشخص عاطل عن العمل إضافة إلى أنه لا يملك منزلا ستكون لعنة أبديّة لن تداويها السنين ، أخبرتها أنه لا يملك شيئا ويجب أن تفكّر بعقلانية وأن لا تدع وهما يسمّى حبا يتحكم بها ويحرّكها كالدمية ..... كانت رونق تحدّث صديقتها عائشة بما يحصل لها ، فوصل ما حدث مع رونق عن طريق عائشة لمؤيّد ... اخترق قلب مؤيد لكنه لم يستطع فعل شيء ... لم يكن أنانيا ... بعد مضي ست سنوات لم ينسها ... مؤيد كان يذكرها بتنهد وحسرة ولم يستطع نسيانها أبدا...

حصان أمتطيه فيسقطني فأقع ملتطما بالأرض ... نعم هو الحبّ أو بالأحرى الوقوع من الحبّ

استيقظت وقد ارتفعت الشمس في السماء قيد رمح مع حلم مؤلم وواقع مملّ.... ألملم شظايا إنكساري ...

سمعت صوت أولغا 12 فارتعبت إنّها تخالف القوانين ولماذا ولأجل ماذا خرجت مسرعا رفعت نظري وإذ بها فوق التلّة هناك تنادي على شعبها : أوووولغاااا يا شعب أوووولغاااا...

كان صوتها جميلا تسلل إلى قلبي ببطء ، كانت تشير بيديها وتدعوهم للاجتماع ، وقفت وكأنّها تريد أن تلقي خطابا :

يا شعب أولغا إلى متى نحرم من الكلام .. إلى متى نختصر حياتنا .. إلى متى نعيش بهذه الطريقة الروتينية ... لا نعرف أغلب المشاعر ... لأنّ الحب لم يطرق أبواب قلوبنا ... إنّ حياتنا مزيّفة .. إنّ الحب هو نغمة متجانسة لقلبين أدّوا نفس الرقصة على إيقاع تكامليّ بينما أحدهما يكمّل الآخر ... من هذه اللحظة سأستعمل صوتي لن أتحدّث بالإشارات ..

وإذ بوالدها يتقدّم نحوها بصولجانه الذي لا يضعه من يده .. فضربها ضربة قوية على رأسها فأسقطها أرضا وأمر رجلين منهما أن يحملانها .. وقفت ساكنا لم أفعل شيء ، هل أتدخّل بين فتاة ووالدها وكيف لأولغا12 أن تقدم على فعل كهذا دون أن تسألني؟ ولماذا؟ لقد كانت سعيدة بعالمها لا تريد أن تكسر القوانين ... لماذا فعلت هذا؟

تقدّمت من والدها لأبرر له تصرّفها لكنه حالما رآني أشار إليّ أن أصمت ، علّق برديّا على الشجرة المقابلة لخيمته ، لم أستطع قراءة مافيه فلقد كان عبارة عن أرقام كثيرة ورموز غريبة ، اجتمع شعب أولغا حول ذلك الورق يقرؤون مافيه فسألت إحدى صديقات أولغا12 فأخبرتني بلغتها أنّ الأسطورة تتحقق ويجب وضع حدّ قبل اندثار وهلاك شعب أولغا وبهذا قرر الزعيم معاقبة ابنته لأنّها تخطّت القوانين ونطقت بما حرّم علينا وبهذا ستحل علينا لعنة الأجداد إن لم نعاقبها ...

ذهبت جاريا نحو العرّاف لعليّ أفهم ما يحدث ... دخلت خيمته وقلت مسرعا خائفا : أولغا12 ستعاقب جرّاء كلامها

- على مهلك يا وائل

- أولغا12 ستعاقب وأنت تقول لي على مهلك ؟

- هذا ما جاء في الأسطورة

- أيّ أسطورة ؟

- لدينا أسطورة توارثناها جيلا بعد جيل ... تنصّ على أنه سيلد الزعيم بنتا تكون في جمالها كالبدر وتتفتح زهور الليلك عند ولادتها ويبهج الكون ويترنّح الشجر ويفرح أولغا الأكبر بتواجدها ففي لسانها تسكن الحكمة وفي وجهها تقبع السعادة وفي ضحكتها سرّ الكون، في يدها الريادة وفي يدها الإبادة ، تقع في الحب فتكفر بالتقاليد وتعصي قوانين الأجداد وتحرق جزاء بما فعلت وإن لم تحرق فستقع اللعنة على شعب أولغا سيباد ويسحق وتصير أرضه بركانا وسماؤه سوداء ويختفي للأبد ....

- ماذا ؟ تحرق لأنّها تكلمت ووقعت في الحب ؟ لماذا ؟ تحرق ليبقى شعبها في أمان ما هذه التضحية

- هل تستطيع أن تحرق بدلا منها ؟ يجيب وائل في فزع :

- ماذا ؟

- لقد سمعتني بوضوح ، قدّم نفسك بدلا عنها

- لا أستطيع ...

- لماذا ؟

- لأنّني لا أنتمي إلى هذا المكان

خرج وائل بعد هذه الكلمات مباشرة ليلمح أولغا12 مربوطة إلى شجرة هناك، وقد نزع الإكليل عن رأسها، ذهب مباشرة نحوها يحدّثها بتألم والدموع تملئ عيناه : لماذا ؟ لماذا يا أولغا12؟

تنظر إليه بكلّ حب والابتسامة تزيّن ثغرها : لأنّني أحببتك ولا أريدك مسجونا ، ليس لديك دافع يجعلك تمكث هنا سواي ، أنت في حيرة من أمرك بسببي ، لا أستطيع الولوج إلى عالمك ولا تستطيع البقاء في عالمي ، منذ قدومك تغيّرت أفكاري وصرت أحبّ الكلام بعدما كنت أكبر ساخطة عليه ، أتعلم يا وائل لم حرّم علينا الكلام ؟

- لا أعلم ذلك .. ويمسك وائل بخصلة شعرها التي أزعجتها وتدلّت على وجهها فيرجعها إلى الخلف

- حرّم علينا الكلام لأنه في أحد الأيّام قبل قرون طويلة ولدت جدّتنا أولغا ولدين توأمين وكان جدّي أولغا الزعيم يعاملهما بعدل في كلّ شيء ظاهريّا لكن قلبه كان يميل لأولغا 4 أكثر من أولغا44 وكذلك أمّهما ، لأنّه كان يؤدّي مهمّاته بكلّ تميّز وتفوّق وكان يحترم والديه ، أولغا 4 كان متميّزا وذكيّا وحنونا .. لاحظ أولغا44 الفرق الطفيف في المعاملة الكلامية بينه وبين والديه فواجه أباه بحقيقة ما اختلج في نفسه فأخبره والده بحقيقة مشاعره تجاه أخيه والأسباب التي جعلته يفضله فثارت ثائرته وذهب شاكيا لأمّه فأخبرته بما يحويه قلبها من حب لهما لكن أولغا4 يحتل الحبّ الأكبر ، كان الصدق والصراحة ما يتميّز به شعبنا ، فاشتعل غضبا وطفق يخصف عليه من التراب وذهب لأخيه أولغا44 ، لقد قتل نفسه على مرأى من أخيه .. لم يستطع قلب أولغا4 التحمّل وذبل يوما بعد يوم حتى يبس كجذع شجرة ، حزن حزنا شديدا على أخيه وصار يلوم نفسه كلّ يوم حتى ذبل ومات ... أمّا والدتهما فلم تستطع التحمّل ... فذبلت ولحقت بهما .. أمّا أولغا الزعيم فلقد قرّر أن يحرّم

الكلام على شعب أولغا الذي أدّى إلى فناء أسرته واضمحلال ولديه العزيزين وزوجته ... قبل أن يذبل الزعيم كتب أسطورته ولعنته وقانونه ، وتوارثته الأجيال ...

يقول وائل بعد تنهّد : إذن يزعمون أنه بمعاقبتك يحافظون على بقائهم ... ؟

تنظر أولغا 12 نحو الأرض وتقول : نعم

- أليس هناك حلّ آخر؟

- لا أعلم ، اسأل العرّاف الذي أحضرك إلى هنا

- العرّاف هو الذي أحضرني إلى هنا؟

- نعم ، ألم تتمنى أن تأسرك السعادة

تذكّر وائل حديثه مع العرّاف في عالمه وتذكّر أنّه تمنى ذلك

همّ وائل بالذهاب لكن أولغا12 نادته بصوتها العذب الجميل ونظرت في عينيه لتقول له : أحبّك ، وكأنها تودعه

ذهب وائل إلى العرّاف مسرعا ليسأله عن حلّ بديل ، لكن العرّاف أجابه بالنفيّ إلاّ إن ضحى هو بنفسه بدلا عنها

خرج وائل من خيمة العرّاف ... لا يستطيع أن يراها تتعذّب ... ستحرق وهو ينظر إليها في صمت ... لا يستطيع ذلك ...

(14) رجوع مفاجئ

أحضر وائل أسطوانة حديدية حادة الحواف وصاح مهددا بقتل نفسه وقطع شرايين يده إن لم يتراجعوا عن إعدام أولغا12 بالحرق فتجمّع شعب أولغا مسرعا في مشيته ، ووائل يهدد وعلا صراخ أولغا12 قائلة :لا ... لا تفعل ... أنا اخترت مصيري يا وائل

ووائل عيناه مضطربتان وهو يرتجف .. خرج أبوها مسرعا ... ووائل يهمّ بقطع شرايينه وإذ بالعرّاف يصرخ قائلا : واائل ... وأشار بيده فسقطت الساعة من جيب وائل وفتحت وجذب ريح قويّ وائل نحوها

وهو يأبى ذلك ويحاول الهروب منها لكن لا مفرّ جذبته ودخل داخلها ليفيق على صياح وأصوات علت مسمعه : جيش شعب خاوة خاوة

جيش شعب خاوة خاوة

سلمية سلمية

نظر وائل حوله ، نظر جيّدا ، نهض ونفض ملابسه وتمعّن الشارع وقلب عينيه فيه ، إنه حيّ القصبة العتيق وهذه هتافات المظاهرات السلمية

جرى وائل في تلك الأروقة المرممة التي تهمّ جدرانها بالسقوط لولا الأعمدة الحديدية التي تمنعها من ذلك ... وصل أخيرا إلى مصدر الهتاف أمام البريد المركزي اجتمع حشد كبير ، اتجه وائل إلى شاب من الجموع بعدما التقط أنفاسه بصعوبة : هل اليوم جمعة؟

نظر إليه الشاب باستغراب قائلا: يا أخي إذا تناولت شرابا مخدّرا فابتعد من هنا، ودفع وائل بيده ، فاتجه إلى رجل في عقده الرابع : يا أخي هل اليوم جمعة ؟

نظر إليه باستغراب لكن أجابه ب: نعم ...!!!

مسك وائل رأسه وأحسّ نفسه في دوّامة يصعب الخروج منها ... أفل عائدا إلى الشقّة التي كان يستأجرها مع عاصم لكنه وجدها خاوية ، استغرب الأمر وزادت دهشته ، اتجه مباشرة إلى الجار المقابل لهم في الطابق وسأله عن صديقه فأخبره أنّه غيّر مسكنه بعد غيابه المفاجئ ، فسأله وائل : كم غبت؟

- لا أذكر

- ماهو تاريخ اليوم؟

- اليوم 25-11-2019

- الحمد لله ، شكرا جزيلا

قال في نفسه :غبت تسعة أشهر ، اعتقدت أنني غبت أكثر من ذلك

عاد وائل إلى بيته وهو كالمتشرّد لا يحمل شيئا .... ركب الحافلة دون أن يدفع النقود تائه ... خائف ... مذهول ... غير مصدّق لما حصل له ...

دقّ الباب فاحتضنته أمّه باكية : بنيّ ... رجعت .. ما دهاك .. لماذا ذهبت وتركتني .... لماذا يا ولدي أحرقت فؤادي وتواصل نحيبها .. أتى إخوته واحتضنوه وهو جامد المشاعر لا يقول شيئا ، حتى والده احتضنه وقبله وعاتبه ، لكنه لم يفهم شيئا ولم يشأ أن يفهم

نام وائل وهو صائم عن الكلام والأكل ، لكنه استيقظ في اليوم التالي على صوت عاصم قائلا بنبرة عتاب ومزاح : هكذا تفعل بصديقك العزيز ، واحتضنه قائلا: لماذا لم تخبرني لكي أذهب معك ؟

استغرب وائل قوله ، كلهم يؤنبونني على الذهاب فهل يعلمون المكان الذي ذهبت إليه؟

- جميعكم تلومونني على ذهابي في صمت ؟

- نعم لماذا لم تخبرنا ، لو تعلم الوجع والدموع التي نزلت من عيني والدتك ..

- لم أعلم أنني سأذهب

- ماذا ؟ أتمازحني!

- عاصم ... كف عن إزعاجي .. لم أكن أعلم أنني سأترككم لمدّة تسعة أشهر ولم أكن أعلم البتة أنني ذاهب إلى مكان آخر أو عالم آخر

- عالم؟ لقد بعثت رسالة لنا مع كهل تخبرنا فيها أنّك مهاجر هجرة غير شرعيّة " حرّاق" إلى إسبانيا لأنك مللت التواجد هنا .... يقطعه وائل : بعثت رسالة مع كهل؟

- نعم ، فعلت ذلك ، وأنا لا أستطيع دفع الإيجار وحدي لذا غيّرت المسكن

- صف لي هذا الكهل؟

- يلبس برنوسا ، في عقده الخامس ، وجهه مستدير ونظرته مخيفة ... يقطعه وائل:

هل قابلته : نعم لقد وجدته أمام باب البيت ينتظرني وأخبرني أنك انطلقت في رحلتك اليوم باحثا عن السعادة.. وسألني عن رغبتي في اللحاق بك ، لكنّي توجست منه خيفة وأجبت بالنفي

نظر وائل إلى الأرض وقال لعاصم : إنه نفس الشخص الذي أخبرتك أنه كان مقابلا لي عندما ذهبنا إلى البحيرة وأخبرتني أنها مجرّد تخيلات

- ما علاقة هذا الشخص بذاك الشخص

- إنّهما نفس الشخص وأنا لم أبعث أيّ رسالة

سأتركك لترتاح قليلا ، يبدو عليك التعب.. ويلمس عاصم جبهة وائل ليتفقد درجة حرارته ، وغادر مباشرة

جلس وائل في غرفته يفكّر .. ويفكّر يسأل نفسه : ماذا حصل لأولغا12 يا ترى ؟

هل أحرقوها أم عذبوها ؟

(15) على حافّة الحبّ

تشاهد صفيّة ذبول ابنها وائل يوما بعد يوم لم تكن تعرف السبب ... شحب وجهه واصفرّ لونه ورقد في الفراش ولا ينهض إلّا أحيانا ... غائب بقلبه .. تائه .. هائم بخياله ... اتجهت صفية نحوه وقالت : وائل .. ما بك يا ولدي

- لا شيء

- لا ... وجهك شاحب وضحكتك باهتة ... كأنّي لا أعرفك ... أحسّ بوجع يتردد صداه في قلبك .. أخبرني يا بنيّ ... ماذا حدث لك في الفترة التي غبت فيها ؟

- وقعت في حبّ فتاة لا وجود لها ..

- ماذا ... وتفزع الأمّ مواصلة: بسم الله ... يا لطيف ... ماذا تقول يا بنيّ

يجيب وائل بكلّ برودة : ما سمعت

خرجت الأمّ مصدومة من قول ابنها وأخبرت زوجها ، فأحضرا له راقيا معتقدين أنّ به مسّا .. أو سحرا... أرادوا معرفة تغيّر حاله وقد جرت العادة في بلدنا أن نستعين بالرقاة قبل الأطباء خاصة في مثل حالات وائل

ضحك وائل أثناء رقيته وبذلك صارت الظنون حقيقة وأخبرهم الراقي أنّ به مسّا ... كان وائل يضحك ... لأنّ ما حدث له فعلا يخالف الحقيقة ويجب أن ينساه ولا يحدّث أحدا به

ولا يتحدّث به ولو مع نفسه... تكررت رقية وائل أكثر من سبع مرّات حتى كفّ عن الضحك لأنّه وجد أنّ الحلّ في الكفّ عن الضحك ، فوالداه لن يصدّقا ما حدث له ، وربما بعد سنين لن يصدّق ما حدث له .. سيبقى حبّ أولغا 12 متغلغلا في كيانه ... وسرّا بينه وبين نفسه

وائل بعد شهرين لم يستطع الإستمرار في الكذب والتظاهر أنّه بخير وقرّر الذهاب لطبيبة نفسيّة .. كان يريد بشدّة معرفة ما حدث لأولغا 12 ... دعا الله وبكى وسقطت دموعه

لم يعد يهتم لا بالحراك ولا بأيّ أمر آخر ... كان مكويا بنار حبّها ... دخل للعمارة التي بدت غريبة الشكل ... دقّ الباب لكن وجده مفتوحا وعند دخوله أغلق مباشرة .. جال بعينيه في المكان ودخل غرفه ليجدها فارغة سوى غرفة واحدة وعند دخوله لها وجد الطبيبة مستديرة بظهرها وقالت دون أن تلتفت له : اجلس من فضلك يا وائل ، تعجّب وائل من معرفتها لاسمه وقال : هل أعرفك ؟

استدارت ليجدها أولغا 12 مبتسمة وتنظر إليه ... لكنه حكّ عينيه وانتبه وأعاد النظر إليها وقال : هل أنت...؟؟؟

أجابت مبتسمة: أولغا12

- لا لا أقرصيني من فضلك

تضحك وتقول : ألم تعلم يا وائل أنّ الحبّ يكسر القوانين .. لا بل يغيّرها ... إنّ الحبّ يا وائل يغيّر المستحيل ويقرّب المسافات .. يليّن الحديد ... ويذيب الجليد

يقول وائل : تركتك تخضعين للعقاب ... كيف وصلت إلى هنا ؟

- قصة طويلة ، لا يمكنني سردها الآن لأنّ وقتي محسوب في عالمكم ولي الحق في رحلة واحدة فقط ... أردت أن أخيّرك بين البقاء في عالمك أو الرجوع معي إلى عالمي ..

أمامك يوم للتفكير إذا قررت الرحيل فافعل كما فعلت في المرّة السابقة في نفس الوقت الذي التقيتك فيه اليوم وها هي الساعة ، وتعطيه الساعة ثمّ تواصل : وإن لم تختر الرحيل

فستضمحل الساعة وتختفي ، وسأذبل أنا وأختفي من عالمي ...

وتنظر إلى وائل قائلة : لقد أصبحت جزءا من عالمي فما أذبلك في عالمك سوى حبك لي الصادق وشعب أولغا يذبل عند الفراق وأنت ذبلت حين افترقنا وهذا جزء من قصة بقائي على قيد الحياة يقول وائل مغازلا لأولغا12: لكنك ازددت جمالا

تبتسم أولغا12 في خجل وتودّع وائل مختفية بعدها في سرعة فائقة

أولغا12 وضعت وائل في أصعب قرار .. كيف يستغنى عن حياته في عالمه ليرافقها إلى عالمها .. كان أصعب قرار واجهه

(16) وجهة خاطئة

جمع وائل حقائبه ... ارتعبت صفيّة لكن وائل اتجه مباشرة نحوها وقبّل يدها قائلا : لقد ابتسمت الحياة في وجهي يا أمّي وحان دوري لاستغلال الفرص التي تعترض طريقي

- نعم يا ولدي .. هل تريد الرحيل؟

- نعم .. أنا ذاهب الآن إلى إسبانيا بعدما قدمت على وظيفة هناك وتمّ قبولي ؟ سأذهب وإن لم يحالفني الحظ سأرجع

تبكي صفية فراق ابنها ويأتي الوالد المتجهّم، لكن هذه المرّة احتضن وائل ودعا له بالتوفيق .. وقال لصفيّة يشدّ عضدها : إنّ ابننا صار رجلا .. اذهب يا بني حماك الله

احتضنته صفية ودعت له بالتوفيق الدائم

وصار وائل نحو مصير اختاره وعالم آخر موهما كلّ من حوله أنّه بخير ... لكن هو لن يكون بخير إلاّ عندما يكون إلى جانبها ... دخل وائل عالمها مجددا وأكّد حبه لها لكن أخذه الشوق يوما بعد يوم وأراد الإطلاع على عالمه وما يحدث فيه .. طبيعته البشرية لم تتحمّل وأصبح يعاني الأمرّين إن عاد إلى عالمه فسيذبل وتنتهي حياته لأنّ ميثاق الزواج تمّ ومن عادات شعب أولغا هو خلط دم العريس بدم العروس بعد إحداث شقّ بسيط في كفّ اليد وبذلك تتصل روحهما إلى الأبد ... وإن بقي فسيأخذ الشوق منه سعادته وراحته .. لكن وائل بعد تسعة أشهر أخرى قرّر الرحيل مع تحمّل العواقب ... فهل ستتقبل أولغا 12 قرار وائل وهل سيختار الذبول لروحيهما ؟

كان العرّاف يراقب كلّ هذا وأخيرا قرّر أن يزيح هذا العذاب عن قلب وائل فاستدعاه إلى خيمته ، انتظره حتى اعتدل في جلسته وقال له : ما رأيك في عالمنا يا وائل ؟

- جميل لكن ...

- ناقص بالنسبة لك

- بصراحة .. نعم

- وما رأيك في عالمك؟

- صمت وائل فأجاب العرّاف بدلا عنه : هو ناقص كذلك في نظرك ... ثمّ صمت ونظر في عيني وائل ليؤكّد إجابته مواصلا: كلا العالمين ناقص في نظرك ... كلّ عالم نقص منه شيء وتميّز بشيء آخر.. هكذا هي حياتنا لن يجتمع فيها كلّ ما نشتهي وإن سنحت لك الفرصة فستظلّ تتقلّب بين عالمكم وعالمنا ولن يرضيك كلا العالمين فالرضا والقناعة شعور قلبيّ ..

- هل استدعيتني لترمي فلسفتك المبعثرة في وجهي ... ؟! أنت لا تفهم ما أشعر به ولن تستطيع الفهم

أجاب وائل بغضب وهمّ بالمغادرة لكن العرّاف استوقفه بسؤال: ألم تتساءل يوما عن سبب اختيارك أنت بالذات ؟ ألم تتساءل عن رؤيتك لي ذلك اليوم في البحيرة؟ ألم تتساءل عن رؤيتك لي دون غيرك؟

وقف وائل صامتا يحاول ربط العلاقات ثمّ نظر إلى العرّاف بتساؤل وجلس مرّة أخرى ، فقال له :

أنا جدّك السابع عشر ، من قبيلة كتامة العربية التي كانت بعض فروعها تسكن جيجل الحالية ...

يوقفه وائل : ماذا ؟

- في أحد الأيّام لمّا كنت شابّا مثلك وكنت تعيسا مثلك ... جلست إلى البحر فسمعت تغاريد طيور من مصدر مجهول فاتجهت نحو المصدر لأجد نفس الساعة التي أهديتها لك ، احتفظت بها أشهرا ، أبعدتها عن كلّ العيون ... كان الفضول يأسرني

وكان تصدر منها أصوات ففتحت غطاءها لأجد نفسي فجأة مسجون فيها ، دام سجني في تلك الساعة سنين سافرت خلالها إلى عوالم عديدة وتعلمت من العلوم ما شاء الله ، لكنّي من بين كلّ العوالم اخترت هذا العالم الذي جعلني سعيدا ببساطته وبساطة شعبه ، خرجت من الساعة واحتفظت بها بعدما أعدت برمجتها على هذا العالم فقط فكلّ مسافر عبرها تحضره إلى هذا العالم ....

- أنت فان؟

- نعم

- أيعقل هذا ؟!

- نعم ، لقد أهدتني أنجلين سوليتا شرابا يجعل كلّ سنة من عمري بسبع مائة سنة جزاء بما فعلت

- من هذه؟

- هي ملكة في أحد العوالم التي زرتها ،و معنى اسمها الملكة المنعزلة

- حدّثني عن مملكتها؟

- يا بنيّ ، ليس الآن ... ولا توجد أيّ فائدة من حديثي عن هذه العوالم ... ما أردت إخبارك به .. أنّني لو عاد بي الزمن لن أختار هذه الحياة أبدا ... لقد ضاعت منّي الكثير من اللحظات في عالمي ... عالمي هو أحسن العوالم رغم ما يشوبه من نقائص ... لكن يبقى عالمي ... يبقى فيه دفء لا يوجد في عالم سواه ... تبقى ألفته ... لن تحسّ فيه بالغربة أبدا ...

يواصل العرّاف : أجبني بصدق يا وائل .. هل تريد الرجوع إلى عالمك والبدء من جديد ؟

- وأولغا12

- ستعود إلى عالمك ولن يحدث شيء لأولغا12 ، لأنّي سأعيدك من حيث بدأت رحلتك .. لن تنسى أنت ما حدث لك .. أنت فقط ... لأنّي سأعيدك إلى الوقت الذي بدأت فيه رحلتك

- سأتذكّر كلّ ما حصل؟

- دع ذلك للسنين .. ربما تتكفّل بنسيانك لما حدث لك

- ما نصيحتك لي يا جدّي؟

- العودة إلى عالمك والرضا والقناعة والمحاولة لتحسين حياتك من كلّ جوانبها .. وبما أنّك وجدت ضالتك وهي الحبّ فالحبّ سيهديك السعادة والمال ، فحبّك لنفسك سيجعلك واثقا من قدراتك وحبّك لمجتمعك سيجعلك متفانيا في أداء واجباتك وتحمّل مسؤولياتك وتغيير ما يجب تغييره....

- وهل سأبقى عاشقا أولغا12 أم سأنسى حبها؟

- لا أعلم بالتحديد ما ستحمله في قلبك من مشاعر وإمكانية تغييرها ، لأنّني سأفعل هذا لأوّل مرّة

- إذن خذني في رحلتي الأخيرة

- لن آخذك .. ستذهب لوحدك

- هل أستطيع توديعها؟

يبتسم العرّاف ليقول: لك كلّ الوقت ،حين تكون مستعدا تعال إليّ

يحضنه وائل ليجد مفاجئة أخرى تنتظره فكيف سيواجه الأمر؟ وهل سيظلّ عالقا في هذا العالم إلى الأبد ؟

(17) بشريّ متأرجح

ينحدر وائل في ذلك السهل ليجد أولغا12 تجلس في المكان الذي وقّعا فيه على وثيقة الحبّ ... كانت عينيها تبرقان من شدّة السعادة والفرح ... لم يشأ وائل كسر الفرحة التي رآها في عينيها فأراد أن يسمعها أوّلا قال: الفرحة تقفز من عينيك .. ما سرّها؟

- وائل إنه ميثاق غليظ ..

- لم أفهم

- لن أفترق عنك أبدا ... لقد ...

- ماذا؟ تكلّمي .. يا حبيبتي

- أنا حامل بطفلك يا حبيبي ... سأصير أمّا

حدث لم يتوقعه وائل ، بل كارثة ... كيف سيفعل بعد هذا الخبر ؟

جلس وائل بعدما تغيّرت ملامح وجهه والتفت بعينين مرتبكتين نحو النهر ، ينظر إليه، طلّت أولغا12 على وجهه وقالت : ألست سعيدا؟

- بلى ، فرحت بشدّة

استأذن وائل أولغا12 وذهب مسرعا نحو العرّاف يسأله، دخل عليه مباشرة وقال: إنّها حامل

- واصل

- إن عدت إلى الوقت الذي بدأت منه ، هل سيختفي كلّ هذا ؟ أولغا12 وحملها و... وكلّ هذه الفوضى ؟

- تخاف عليها من عذاب الحبّ ؟

- نعم

- سيختفي كلّ هذا من عالمها وكأنّه لم يكن

- أريد أن أسألك يا جدّي

- تفضّل يا بنيّ

- لماذا لم تعد إلى عالمك ، ستكون معجزة القرن الحادي والعشرين

- لا أستطيع

- لماذا؟

- ليس لي دافع لذلك ، فنت عائلتي منذ أمد بعيد ، ضاع شبابي في سوء اختيار...

دفء العائلة ... الاستمتاع بتلك اللحظات ... صار عالمي غريبا عنّي الآن ،

هذا هو عالمي ولقد رضيت باختياري ، لذا سأساعد لتعود إلى عالمك لكي لا تقع في مثل ما وقعت فيه

خرج وائل من خيمته وهو يتنفّس الصعداء ... ذهب مباشرة إلى أولغا 12 ، أمسكها من يدها برفق وأدخلها إلى الخيمة التي جمعتهما ، نظر إليها مطوّلا ثمّ قبلها على جبينها .. وكتم في قلبه الكثير من الكلام ، قال في نفسه وهو ينظر إليها ويتمعّنها : أعلم أنّني لن أجد فتاة مثلك ... لا في مثل أخلاقك ولا جمالك ولا حتى تضحياتك ... وأنا متأكّد أنّني لن أنساك ... لن أنسى حبّا تربّع في قلبي كعرش أنت ملكته ... لا أعلم ما سينجرّ عن تصرفي هذا لكنّي أحببتك وسأظلّ أحبّك

خرج وائل من الخيمة مباشرة وطلب من العرّاف أن يعيده إلى محطّة البداية ...

قال العرّاف لوائل : أتعلم أنّ من يزور شعب أولغا لن يشقى في حياته قطّ ، أنت محظوظ، الساعة هديّة منّي لك احتفظ بها

- وإن لطمتها بالأرض؟

- لن تعود إلى هذا العالم أبدا ، لذا أنصحك بالتريث فإنّي أراك مقيّدا بسلاسل الحبّ وما أثقلها

- لقد اخترت وفي الحالتين أحسّ بالعذاب

لن تُفتح الساعة أبدا بعد اليوم ، ستصبح بعد رحلتك الأخيرة سوى تذكارا فقط

قرّر وائل الرجوع ... قام بأوّل وآخر رحلة عبر الزمن ، وإذ به يجد نفسه على حافة الطريق السيّار ثانية في نفس مكان شاحنة الكهل- العرّاف- ، يحمل الساعة في يده التي اختفى بريقها ودفئها ، نظر إليها وخبّأها في جيبه ثمّ ذهب مسرعا إلى بيته المستأجر ليتأكّد فعلا أنّه رجع إلى عالمه ، ففتح الباب ووجد البيت وكأنّه لم يغادر منه ، جلس على الأريكة يتمعّن المنزل ، وعند دخول عاصم جرى نحوه يحضنه .. قائلا: صديقي اشتقت لك

- وائل ... كفاك مزاحا ألم نفطر سويّا

تذكّر وائل ... أنه الوحيد المتذكّر لما حصل له ... فجلس ثانية على الأريكة ، فقال له عاصم : تجلس! وأنا جائع ... ألا يوجد طعام ؟

- لقد اشتقت إلى عائلتي

خرج وائل مسرعا نحو البيت بعدما قرّر أن يستغل كلّ لحظات حياته .. تغيّر وائل في كلّ شيء ... حتى في طريقة كلامه ، أصبح أكثر مسؤولية ورزينا .. أكثر حزما وجديّة وأكثر سعادة

(18) قف بعيدا

نستعمل المبيد للقضاء على الذباب فيسقط أمام أعيننا منكمشا ويعلو أزيزه ، يختنق ويتخبّط ... هكذا هي حالي بعد فراق أولغا12 ، أختنق وأتخبّط على قيد ذكراها ، رغم رجوعي إلى لحظة البداية إلّا أنّني دفعت ضريبة مغامرتي ألا وهي الإحتفاظ بالذكريات ، لم أنسى أيّ شيء رغم مرور شهور ولم أقع في حبّ أيّ فتاة بعدها ، أتذكّرها في كلّ ليلة أضع فيها خدّي على الوسادة ... أتذكّر ضحكتها ... مشيتها ... نظرتها ... كلّ تفاصيلها ... ليس

لها مثيل ... ولن أقع في حبّ أيّ امرأة غيرها لأنّي حتما سأقارنها بها وهذا سيجعلها في الكفّة الخاسرة فأولغا12 في كفة وكلّ نساء العالم في الكفّة الأخرى ...

يبدو لي كلّ ما مرّ عليّ حلما ... لكن عندما أحمل الساعة في يدي وأتمعّنها أدرك فعلا أنّ ما مررت به لم يكن حلما ... تمعّنت هذه المرّة الساعة والسلسلة ثمّ طوّقتها رقبتي وقررت من اليوم أن لا أنزعها من عنقي ....

قف بعيدا يا وائل... ولا تقترب فقد تحترق بنار الذكرى

قف بعيدا ... ولا تفكّر كثيرا فلقد خُيّرت ووقع اختيارك على هذا العالم ... استمتع إذن ... جدال كبير بيني وبين نفسي ، يدخل عاصم ليجدني على ذلك القدر الكبير من التفكير فأوهمه أنّني بصدد إعداد مذكّرة التخرّج ...

عاصم ذكيّ فقد لاحظ تغيّري قبل أشهر ، لاحظ ذهولي وشرودي ، قال لي مستفهما بعدما جلس على الأريكة : وائل ألا تريد إخباري بأمر مهمّ يؤرقك

نظرت إليه مبتسما وقلت في هدوء: لا

- هل بعثوا لك استدعاء الخدمة العسكرية

- نعم

- لا عليك ، بعد إنهاء دراستك أدّ الخدمة العسكرية ولا تخف ، لن يحصل لك شيء، كلّ الشباب يؤدونها ويرجعون إلى حياتهم الطبيعية سالمين غانمين

- عاصم إن أخبرتك بما حدث لي، لن تصدقني لذا سأختار الكتمان

- نحن أصدقاء من مرحلة الثانوي ، هل خنت أمانتك ولو لمرّة؟ هل بعت سرّك ولو لمرّة؟

- ما تريد معرفته يا عاصم أمر جنونيّ ، لن تصدّق ما حدث معي وستتهمني بالجنون والإرهاق الفكريّ والنفسيّ

- لن أفعل

- نظرا لإصرارك سأخبرك، أتتذكّر ذلك الكهل الذي أخبرتك أنّي رأيته في بحيرة بلدية ابن باديس؟

- نعم أتذكّر

- ذلك الكهل أخذني في رحلة إلى عالم آخر يعيش فيه شعب أولغا ....

يقف عاصم بعدما اتسعت حدقتا عيناه فيتوقف وائل عن الحديث ويقول : أرأيت ؟ أنت لا تصدقني

ينتبه عاصم لنفسه ثمّ يجلس واضعا رجلا فوق رجل محاولا إخفاء إرتباكه قائلا وصوته يرتجف مشيرا بيديه : لا لا ... أنا ... أصدّقك .. واصل ، ثمّ يشبّك يديه ويحاول التركيز

يجلس وائل إلى جانبه بعدما كان مستلقيا حاملا كتابا جامعيا ليوهم عاصم أنّه يفكّر في رسالته الجامعية ويستغلّ قواه الفكرية في ذلك ، وضع الكتاب جانبا واستخرج السلسلة الذهبية ونزعها عن رقبته وقال لعاصم : أنظر ، هذه الساعة من عالمهم وهي كلّ ما تبقى لي من ذلك العالم

يفتح عاصم فمه مندهشا ويفتح غطاء الساعة ليرى غرابتها، واصل وائل حديثه محاولا الإختصار وأخبر عاصم بحبه لفتاة أحلامه ، وعند انتهائه من حديثه قال له عاصم واضعا يده اليسرى على كتفه الأيمن : اعتبرها مغامرة جريئة أو بالأحرى معجزة عظيمة كتبها الله لك في زمن انعدمت فيه المعجزات ، أنت محظوظ يا أخي ، افتخر وعش مفتخرا

واستغلّ هذه التجربة لصالحك ، لا تعش على قيد الذكرى وتترك أجمل أيّامك تضيع منك ، وتذكّر يا وائل أنت من اخترت.

كانت كلمات عاصم معقولة ومنطقية ، فعلا أنا من اخترت الرجوع، ويجب عليّ الإستمرار والسعي وراء هدفي وطموحي ، لن أنزوي بعد اليوم ولن أتحسّر ...

(19) ذكريات موثّقة

تدخل رونق ذلك المعرض الضخم للوحات في غاية الجمال ... معرض في سويسرا للوحات فنيّة يقام المزاد لشرائها وتتنافس القنوات على راسمها من أجل لقاء خاص به ... كانت تتجوّل في أروقة المعرض معجبة بتلك اللوحات التي شارك بها صاحبها في عدّة معارض عالميّة ، تتساءل عن سبب إلهام هذا الرسّام ومن أين له بهذه الأفكار ، أرادت لقاء حصريّا معه لأنّها صحافية وأتت إلأى سويسرا لهذا الغرض، إضافة إلى أنّ الفضول أخذ منها مأخذا عظيما

تجوّلت في أروقة المعرض والرسّام يشاهدها من غرفة المراقبة ضمن كاميراته ، لقد قضت مساء كاملا في التجوّل ، هل تريد أن تسرق لوحة ، أم تبحث عن لغز؟ قرّر الرسام أن يهبط إليها ويعرف ما تخفيه هذه الفتاة

يرتدي بذلة أنيقة ذات لون رماديّ فاتح وقميص أبيض قد فتح بعض أزراره الأولى وحذاء كلاسيكيا أنيقت ا أسودا مع نظرات سوداء ... تقدّم منها بعدما تجوّل في نفس الرواق يتمعّن لوحاته لكي لا تنتبه أو تتعرّف عليه ، قال لها : جميلة هذه اللوحة

نظرت إليه وأجابت : نعم في غاية الروعة ، فكيف يمكن وضع ساعة ذهبية راقية متناسقة ، جميلة في يد ممزّقة .. تسيل منها الدماء ... وما دلالتها ؟

- وحده الرسّام يعرف الجواب مع إمكانية وضع الإحتمالات ، فمثلا ربما يريد أن يقول لمن حوله أنّه يبقى ثابتا قويّا متأنّقا متعاليا رغم قساوة الحياة وربما الساعة هي مصدر قوّته ... وينظر إليها وهو يتحدّث من حين لآخر ثم يواصل بعد صمت طفيف : أليس كذلك؟

تنظر إليه لتقول : نعم ربما ... يبقى مجرّد احتمال لكن لوحاته كلّها لها دلالات وألغاز وكأنّها تتحدّث ، تعبّر عن نفسها بعمق شديد ...

- هي فعلا كذلك .. فالرسم هو اللغة الصامتة العميقة

- نعم .. يأخذني الفضول لأعلم لماذا رسم خيمات مصنوعة من الورد ، وما هذه الزهرة التي تحيط بالخيمة في تلك اللوحة ، وتشير إليها وتواصل: وتلك المرأة الرائعة التي رسمها وفاز بها في جائزة أحسن عمل فنّي بفرنسا .. من أين أحضر ذلك الوجه؟ أين رآه؟

وتلك اللوحة التي رسم فيها يدا تحمل أسطوانة حديدية تقطع يدا أخرى ورجلا بعيدا ينظر لليدين في صمت ، أريد أن أعرف سرّ كلّ هذه اللوحات

يضحك الرسّام ليقول : تريدين أن تعرفي سرّ خمس وثمانين لوحة في لحظة ! ويضع يديه في جيوبه مواصلا قهقهته ، فتقول رونق : ليس في لحظة بل سأسمعه حتى أخر حرف يقوله ولو استغرق ذلك سنين ..

يشير الرسّام بسبابته لرونق : أترين تلك اللوحة

- نعم

- تلك المرأة المرسومة .. اسمها أولغا12

- أولغا12؟

- نعم

- فهمت أولغا معناها السعيدة باللغة الروسية وهي من أصل اسكندنافي لكن 12 ، لم أفهمها ثم تصمت وتنظر إليه بتمعّن لتستدرك ما فاتها : عذرا من أنت ؟

ينزع نظاراته ليقول لها : أعرّفك بنفسي أنا وائل حيراو راسم هذه اللوحات

(... يتبع في الجزء الثاني إن شاء الله تعالى)